سيد ولد آدم

من المهد إلى الرفيق الأعلى

© حُقوقُ الطَّبعِ محفُوظَة

اسم الكتـــاب: سيد ولد آدم (من المهد إلى الرفيق الأعلى)

تـأليـــــــف: أسماء عبد الناصر البربري

القـطــــع: 21X14

تدقيق لغوي: رنا أبو الغيط

سنـة النشـر: 2025

تصميم داخلي: سالم عبدالمعز سواح

النـاشـــــر: دار الزيات للنشر والتوزيع

تم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية برقم: 33324 / 2025

الترقيم الدولي (ISBN): 0 - 692 - 844 - 977 - 978

دار الزيات للنشر والتوزيع

المشهرة قانونًا بسجل تجاري رقم/ ٤٩٣٥١

ت: ٠١٠٦٦٧٣٦٧٦٥ - ٠١٠١٥٧٦٦٠١٤ / shahnda71@gmail.com

ISBN 978-977-844-692-0

9 789778 446920

سيد ولد آدم

من المهد إلى الرفيق الأعلى

تأليف

أسماء عبد الناصر البربري

إهداء

لم أجد أحدًا أهديه هذا الكتاب،
أفضل من سيّدي وحبيبي أبا القاسم محمد ﷺ
بأبي أنت وأمي
يا حبيبي يا رسول الله.
قُلتَ: «بلّغوا عني ولو آية»
فاللهم اجعل هذا العمل خالصًا لوجهك الكريم،
وسعيًا في تبليغ سيرة رسولك ﷺ،
لتكون هدايةً لمن قرأه، ونورًا لمن سمعه.
اللهم اجعلنا من المبلّغين عن نبيك،
ومن السائرين على سنّته إلى أن نلقاك،
يا سيّد ولد آدم،
ويا شفيع يوم الزحام.

إعداد وكتابة: أسماء عبد الناصر البربري
الجمعة ١٤٤٦/٦/١٤هـ

تنويه

هذا الكتاب يجمع بين اقتباسات منتقاة من كتب متعددة، تمت الإشارة إلى أهمها في نهاية الكتاب. وقد رُتبت النصوص ونُسّقت بما يخدم القارئ ويسهّل الفهم دون الإخلال بمضمونها الأصلي.

المقدمة

في زمن كثرت فيه القدوات وتاهت البوصلة، لا قدوة أصدق ولا أرحم من محمد ﷺ.

هذا الكتاب دعوة صادقة لمعرفة النبي كما لم نعرفه من قبل، معرفة تُقرّب القلب منه، وتُورث حبًّا واتباعًا، لعلنا نُعرف عند الحوض يوم اللقاء، فينادي الحبيب: «أمتي... أمتي».

هنا رحلة في السيرة النبوية من الميلاد إلى الوداع، نُبحر بين المواقف، ونستنشق عبير سنّته، ونرى كيف كان ﷺ في بيته، ومع أصحابه، ومع ربّه.

كتبتُه حبًّا فيه، وشوقًا لأن يزداد القارئ معرفةً برسول الله ﷺ حتى يمتلئ قلبه نورًا وطمأنينة.

فما كان من توفيق فمن الله، وما كان من تقصير فمني ومن الشيطان، والله المستعان وعليه التكلان.

أسماء عبد الناصر ✍

نسبه

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة.

الهاشميون أول آل البيت، هم أهل رسول الله.

جده الأعلى "هاشم بن عبد مناف"، وهاشم هو لقبه الذي غلب على اسمه الأصلي وهو "عمرو"، وإنما لُقّب هاشمًا لأنه أول من هشّم الثريد لقومه بمكة وأطعمه؛ والثريد مثل "الفتة". وكان أكبر أولاد عبد مناف، وكان أعظمهم مكانة، ولذلك ولي بعد أبيه منصب "السقاية والرفادة". والسقاية هي جلب الماء من مصادره إلى مكة لسقاية الحجاج، والرفادة هي إطعام الحجيج في موسم الحج حتى يخرجوا راجعين إلى بلادهم. توفي هاشم بغزة من أرض فلسطين في إحدى رحلاته التجارية وهو في ريعان شبابه ودُفن هناك.

"عبد المطلب" وهو الجد المباشر للرسول، وكان أبرز أولاد هاشم، وتولى وظيفة "الرفادة والسقاية" بعد موت عمه "المطلب بن عبد مناف"، وإليه صار شرف قريش، وكان سيد قومه وأمير مكة. جدد حفر بئر زمزم، وكان في أيامه محاولة أبرهة الحبشي غزو الكعبة.

"عبد الله بن عبد المطلب" والد الرسول، فقد كان أحب أبناء عبد المطلب، الملقب بـ"الذبيح الثاني". فسعى عبدالمطلب بنفسه في تزويج ابنه عبد الله فاختار له أفضل امرأة في قريش نسبًا، وهي "آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة".

قد تزوجها عبد الله فحملت منه بسيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم، ثم سافر إلى الشام في تجارة لقريش، وفي الرجوع أحسّ بالمرض قبل وصول مكة، فنزل بالمدينة عند أخوال أبيه من بني عدي بن النجار، فلبث هناك شهرًا وهو مريض ثم توفي ودُفن بالمدينة، وكان سنه حينذاك خمسًا وعشرين سنة، وكان صلى الله عليه وسلم حين توفي والده ما زال جنينًا في بطن أمه.

مولده

في عام الفيل، ويوافق سنة ٥٧١م. ولا نعلم بالتحديد اليوم الذي ولد فيه، لكنه في أول أيام شهر ربيع الأول. وفي بعض الروايات: يوم الإثنين، في الثاني عشر من شهر ربيع الأول.

قام جده عبد المطلب مقام والده، فأحاطه بكفالته ورعايته. رضع صلى الله عليه وسلم في البداية بجانب أمه من ثويبة جارية عمه أبي لهب، وهي التي أرضعت عمه حمزة، وجعفر بن أبي طالب، وأبا سلمة بن عبدالأسد المخزومي.

بعد ذلك رضع من "حليمة بنت أبي ذؤيب" من بني سعد بن بكر بن هوازن بن منصور، وعُرفت باسم "حليمة السعدية". زوجها هو الحارث بن عبد العزي، وأولادهم هم: "عبد الله، وأنيسة، وحذافة التي عُرفت باسم الشيماء"؛ فهؤلاء هم إخوة الرسول من الرضاعة.

تختلف الروايات حول مدة حضانة حليمة لمحمد صلى الله عليه وسلم، فيذكر البعض أنها كانت خمس سنوات، وقيل أربعًا، وتذكر بعض الروايات أنها ست سنوات. وتبدو الرواية الأولى أصح، فقد رجع قبل وفاة أمه، ولكن المدة لم تطُل، فقد توفيت أمه وقد جاوز السادسة بثلاثة أشهر.

كان ذلك بسبب عادات قريش وغيرها من أشراف العرب، إذ يرسلون أولادهم في مرحلة مبكرة جدًا من حياتهم إلى البادية ليستمدوا من طبيعة الحياة هناك صلابةً وعزمًا وصحة بدن، وليكون ذلك أفصح لألسنتهم. وكانت نساء البادية يأتين الحضر بحثًا عن الرُّضعاء والتمسًا للرزق، ومن بين القبائل التي اشتهرت بذلك نساء قبيلة بني سعد.

ترددت حليمة في البداية أن تأخذ سيدنا محمد لإرضاعه لما عرفته من يتمه، ولما قد يترتب على ذلك من ضآلة الأجر الذي ستتقاضاه مقابل إرضاعه وحضانته. فلما لم يتح لها سواه؛ لأنها تأخرت في الذهاب وسبقتها صاحباتها وأخذن الأطفال الآخرين، قبلته حتى لا تعود بغير رضيع، وذلك بعد أن استشارت زوجها في أخذه. فقال لها: "لا عليك أن تفعلي، فعسى أن يجعل الله لنا فيه بركة"، وهذا ما كان. فتقول حليمة: "لم يزل الله يرينا البركة نتعرفها حتى بلغ سنتين. فكان يشب شبابًا لا يشبه الغلمان. فوالله ما بلغ السنتين حتى كان غلامًا جفرًا (قويًا)".

وهكذا وجد محمد صلى الله عليه وسلم نفسه في سن مبكرة محرومًا من حنان الأبوة والأمومة معًا. ولكن جده عبدالمطلب حاول جاهدًا أن يعوّضه ما فقده؛ فقد كان بالغ الرأفة به شديد الحرص عليه. فكان يوضع لعبدالمطلب فراش في ظل الكعبة، ولم يكن بنوه يجترئون على الجلوس عليه إجلالًا لأبيهم ومهابةً له، فكان

محمدًا وهو صبي يأتي ويجلس عليه، فيحاول أعمامه منعه، فيأبى ذلك عبدالمطلب ويقول: "دعوا ابني، فوالله إن له لشأنًا"، ثم يجلسه معه عليه، ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع.

إلى هذا المدى وصل حب عبدالمطلب لحفيده محمد صلى الله عليه وسلم وحنوه عليه، ولكن العمر لم يمتد طويلًا بعبد المطلب بعد وفاة آمنة، فوافاه الأجل وقد بلغ الرسول صلى الله عليه وسلم من العمر ثماني سنوات على أشهر الأقوال.

أعمام رسول الله صلى الله عليه وسلم

الحارث، حمزة، أبو طالب، الزبير، عبدالكعبة، قثم، حجل، المقوم، ضرار، أبو لهب (عبد العزي)، الغيداق، العباس.

أدرك الإسلام أربعة فقط من أعمامه، وهم: (أبو طالب، أبو لهب، حمزة، العباس).

أسلم منهم اثنان، وهما حمزة والعباس.

عمّات رسول الله صلى الله عليه وسلم

صفية (وهي أم الزبير بن العوام)، عاتكة، أروى، أميمة، برة، أم حكيم.

أسلم منهن صفية وأروى، واختلفوا حول إسلام عاتكة.

أخوال رسول الله صلى الله عليه وسلم

هم عبد يغوث بن وهب، بنو زهرة (مجازًا)، ومنهم سعد بن أبي وقاص.

خالات رسول الله صلى الله عليه وسلم

فاطمة بنت عمرو، الفريعة بنت وهب.

أمهات المؤمنين رضي الله عنهن

- خديجة بنت خويلد رضي الله عنها.
- أم سلمة (هند بنت أبي أمية) رضي الله عنها.
- جويرية بنت الحارث رضي الله عنها.
- صفية بنت حيي رضي الله عنها.
- ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها.
- أم حبيبة (رملة بنت أبي سفيان) رضي الله عنها.
- مارية القبطية رضي الله عنها، ومنها ابنه إبراهيم.
- زينب بنت جحش رضي الله عنها.
- زينب بنت خزيمة رضي الله عنها.
- حفصة بنت عمرو رضي الله عنها.
- عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها.
- سودة بنت زمعة رضي الله عنها.

أبناؤه

له ستة أبناء من السيدة خديجة رضي الله عنها، وابن واحد من السيدة مارية القبطية.

القاسم وعبد الله توفَّيا صغارًا.

زينب: تزوجت أبا العاص بن الربيع وأنجبت عليًّا، وأُمامة.

رقية: تزوجت عثمان بن عفان وأنجبت عبد الله، وتوفيت يوم بدر.

أم كلثوم: تزوجت من عثمان بن عفان بعدما توفيت رقية، وتوفيت أيضًا ولم تُنجب، ولذلك يُلقَّب عثمان بن عفان بـ"ذو النورين" لزواجه من اثنتين من بنات رسول الله.

فاطمة: تزوجت علي بن أبي طالب وأنجبت الحسن، والحسين، ومحسنًا، وأم كلثوم، وزينب.

إبراهيم: من مارية القبطية رضي الله عنها، وتوفي صغيرًا أيضًا، وحزن عليه الرسول حزنًا شديدًا.

وقد ابتُلي رسول الله بفقد أولاده، فقد فقدَ جميع ذريته من الذكور والإناث، ولم يبقَ بعد وفاته إلا فاطمة رضي الله عنها، وتوفيت أيضًا بعده بستة شهور.

أحفاد النبي صلى الله عليه وسلم

١- الحسن بن علي بن أبي طالب: وكان أشبه الناس بالرسول، وهو الابن البكر لعلي بن أبي طالب وفاطمة. وُلد في السنة الثالثة من الهجرة، وتوفي سنة ٤٩ هـ، وكان سنه عند وفاة الرسول نحو سبع سنوات.

٢- الحسين بن علي بن أبي طالب: الابن الثاني لعلي وفاطمة، وُلد في السنة الرابعة من الهجرة، وتوفي سنة ٦١ من الهجرة.

٣- محسن بن علي بن أبي طالب: وُلد في صغره وتوفّي في سن مبكرة.

٤- أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب: وُلدت قبل وفاة رسول الله، تزوجها عمر بن الخطاب فولدت له زيد بن عمر، ورقية، وتوفيت أم كلثوم وابنها زيد عام ٧٥ من الهجرة.

٥- زينب بنت علي بن أبي طالب: وُلدت في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، وتزوجها ابن عمها عبد الله بن جعفر، فماتت عنده، وقد ولدت له، وأولاد وذرية زينب من عبد الله بن جعفر موجودون بكثرة.

٦- عبد الله بن عثمان بن عفان: ابن رقية بنت رسول الله، وُلد بأرض الحبشة وعاش ست سنين.

٧- أمامة بنت أبي العاص: وهي من زينب بنت رسول الله، تزوجها علي بن أبي طالب بعد فاطمة، فلم تلد، ومات عنها، فتزوجها المغيرة بن نوفل، فماتت عنده ولم تلد له.

٨- علي بن أبي العاص: وهو أخو أمامة بنت زينب، توفي وقد ناهز الحلم في حياة رسول الله.

وهكذا لم يكن للنبي عقبٌ إلا من ابنته فاطمة، فانتشر نسله الشريف من جهة السبطين: الحسن والحسين فقط، ويُقال للمنسوب للحسن حسنيّ، وللمنسوب للحسين حسينيّ.

صفة النبي صلى الله عليه وسلم

جسده: كان فخْمًا مفخَّمًا، من رآه بديهةً هابه، ومن خالطه معرفةً أحبَّه، وكان رجلًا مربوعًا ليس بالطويل ولا القصير، وكان إلى الطول أقرب. لم يكن يماشي أحدًا من الناس إلا طاله، ولا جلس في مجلس إلا يكون كتفه أعلى من الجالسين، وكان معتدل الخلق، حسن الجسم، متماسك البدن، أنور المتجرَّد (أي ما تجرد من جسده).

لونه: أزهر اللون، أي أبيض مشربًا بحُمرة، ليس بالأبيض الأمهق (شديد البياض)، ولا بالآدم (الأسمر).

رأسه وشعره: كان ضخم الرأس، عظيم الهامة، شديد سواد الشعر، وكان جعدًا رجلًا (أي ناعمًا وبه تثنٍّ قليل)، يصل إلى أنصاف أذنيه حينًا، ويتركه أحيانًا يصل إلى ما بين شحمة أذنه وعاتقه. لم يحلق شعره بالكُلية إلا عام الحديبية ثم عام عمرة القضاء ثم عام حجة الوداع. كان يُرسل شعره، ثم ترك ذلك، وصار يفرِّقه من وسط الرأس. تُوفي وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء.

عنقه: كانت كأنها جيد دمية في صفاء الفضة. وقال في ذلك علي بن أبي طالب: كان عنق الرسول إبريق فضة. كان في رقبته طول، وقالت عائشة: كان أحسن عباد الله عنقًا، لا يُنسب إلى الطول ولا إلى القصر، ما ظهر من عنقه للشمس والرياح فكأنه إبريق فضة يشوب

ذهبًا، يتلألأ في بياض الفضة وحُمرة الذهب، وما غُيِّب في الثياب من عنقه فما تحتها فكأنه القمر ليلة البدر.

ذراعاه ويداه: كان طويل الذراعين، كثير الشعر، رحب الكف، غليظ أصابع الكفين والقدمين، وأصابعه طويلة ليست بمنعقدة.

إبطاه: كان أبيض الإبطين، وهي من علامات النبوة.

منكباه وصدره وبطنه: كان منكباه واسعين، كثيري الشعر، وكذلك أعالي الصدر. سواء البطن والصدر (أي ليس لديه سمنة في بطنه). عريض الصدر، طويل المسربة، موصول ما بين اللَّبَّة والسرة (أي من النقرة التي فوق الصدر إلى السرة يوجد خط شعر يجري كالخيط).

مفاصله: كان ضخم الكراديس (المفاصل).

خاتم النبوة: غدة حمراء مثل بيضة الحمامة أو مثل الهلال، فيه شعرات مجتمعات، كانت بين كتفيه، وهي من علامات النبوة.

وجهه: كان أسيل الوجه، سهل الخدين، ولم يكن مستديرًا غاية التدوير، بل كان بين الاستدارة والطول. كان وجهه مثل الشمس والقمر في الإشراق والصفاء، مليحًا كأنما صيغ من فضة، لا أوضأ ولا أضوأ منه. كان إذا سُر استنار وجهه كأن وجهه قطعة قمر.

جبينه: كان واسع الجبين، مستويًا، ممتدًا طولًا وعرضًا.

حاجباه: كان حاجباه قويين، مقوسين، متصلين اتصالًا خفيفًا، لا يُرى اتصالهما إلا أن يكون مسافرًا، وذلك بسبب غبار السفر، بينهما عرق يدره الغضب.

عيناه: كان أدعج العينين (أي شديد سواد العينين)، في بياضها حمرة، وهي من دلائل نبوته، وكانتا واسعتين جميلتين، ذات أهداب طويلة كثيرة حتى تكاد تلتبس من كثرتها. إذا نظر إليها الشخص قال: أكحل العينين، وهو ليس بأكحل.

أنفه: يحسبه من لم يتأمله أشم، ولم يكن به شمم، وكان مستقيمًا، أقنى (طويلًا، في وسطه بعض ارتفاع)، مع دقة أرنبته (وهي ما لان من الأنف).

فمه وأسنانه: كان ضليع الفم (واسعًا)، أحسن الناس شفتين وألطفهم ختم فم. أشنب (في أسنانه رقة وحدَّة أي جمال الثغر). مفلج الأسنان (متفرق الأسنان)، إذا تكلم رُئي كالنور يخرج من بين ثناياه.

لحيته: كان حسن اللحية، كثّ اللحية (كثير منابت الشعر). وكان الشعر الذي يظهر تحت الشفة السفلى وفوق الذقن بارزًا وحوله كبياض اللؤلؤ، في أسفلها شعر منقاد حتى يصل اللحية.

قدماه: كان ضخم القدمين، يطأ الأرض بقدمه كلها، ليس له أخمص (الجزء المرتفع من القدم — flat foot). وكان منهوس العقبين (أي قليل لحم العقبين، وهما مؤخر القدمين).

أخلاقه: وكانت أخلاق الرسول انعكاسًا لمبادئ الدين الحنيف الذي دعا إليه وناضل في سبيله، ومن هنا كانت شخصيته مثالًا يُحتذى به أمام المسلمين جميعًا. وهكذا وصفه الله تعالى حين قال: "لقد كان لكم في رسول الله أُسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا"، وقال أيضًا: "فبما رحمةٍ من الله لِنْت لهم ولو كنت فظًّا غليظ القلب لانفضوا من حولك"، وقال: "وإنك لعلى خلق عظيم". صدق الله العظيم.

محمد صلى الله عليه وسلم

منذ وفاة جده إلى زواجه بالسيدة خديجة

كفل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد وفاة جده عبد المطلب أبو طالب عمه، فكان خير كافل، وكان أبو طالب سيدًا شريفًا مطاعًا مهيبًا مع إملاقه، وكان عمًّا شقيقًا لسيدنا محمد. وقام أبو طالب بمهمته على خير وجه، وقد تعلق محمد به في طفولته تعلقًا جعله لا يكاد يصبر على فراقه.

وأخذه أبو طالب معه في تجارة إلى الشام، وكان عمر رسول الله تسع سنوات، والتقى خلالها أثناء نزوله ببصرى براهب في صومعته يُقال له "بحيرى"، وهو الراهب الذي استطاع أن يتنبأ في هذا اللقاء بمبعثه صلى الله عليه وسلم.

وكان لرعاية أبي طالب لمحمد انعكاسًا على زوجته وأم أولاده "فاطمة بنت أسد بن هاشم"، التي تقدم بها السن، وأدركت الإسلام، وماتت مسلمة. ويُروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال يوم ماتت: "اليوم ماتت أمي"، وكفَّنها بقميصه، ونزل على قبرها واضطجع في لحدها. فقيل له: يا رسول الله، لقد اشتد جزعك على فاطمة. قال: "إنها كانت أمي، إن كانت لتُجيع صبيانها وتُشبعني، وتشعثهم وتدهنني، وكانت أمي".

لقد كانت فترة شباب الرسول فترة وداعة وسكينة وتأمل، واشتهر الرسول بعزوفه عن لهو الشباب ولغو الحديث وتحمله المبكر للمسؤولية، وأراد في سن مبكرة أن يخفف عن عمه بعض مؤنته وكان أبو طالب كثير العيال، فاشتغل برعي غنم أهله وغنم أهل مكة. ومضت الحياة بالرسول على هذا النحو حتى أتيحت له فرصة الخروج من مكة مشتغلًا في تجارة السيدة خديجة، وكان عمره خمسًا وعشرين سنة، وتوجهوا إلى الشام، وهناك باع السلع التي خرج بها بأضعاف ربحها، وهنا تفاءلت به خديجة خيرًا، وكان حديث "ميسرة" غلامها عن سيدنا محمد وأن قدراته تفوق مستوى البشر العاديين سببًا لأن تتمسك به. ومنذ ذلك الوقت بدأت حياة محمد تتخذ مسارًا جديدًا.

محمد صلى الله عليه وسلم

منذ زواجه بالسيدة خديجة حتى البعثة

كانت خديجة أوسط نساء قريش نسبًا، وأعظمهن شرفًا، وأكثرهن مالًا، وكان سادات قريش يتطلعون إلى الزواج منها، ولكنها لم تكن راغبة في ذلك. فلما رأت محمدًا وعرفت ما كان يتحلى به من صفات نادرة، عرضت عليه نفسها، فذكر ذلك لأعمامه، فخطبها له عمه حمزة من عمها عمرو بن أسد، فتزوجها محمد، وكان سنه حينذاك خمسًا وعشرين سنة، وكانت خديجة تكبره بخمسة عشر عامًا.

كان زواج محمد من خديجة معلمًا بارزًا في مسار حياته. أغرقت عليه خديجة من حبها ورعايتها ما عوضه عن مرارة اليتم الذي ذاقه صغيرًا. ورزقه الله منها جميع أولاده ما عدا إبراهيم. فأما ابناه فقد ماتا قبل الإسلام، وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن معه. أتاح له هذا الزواج المستقر الهادئ أن يمارس رياضته الروحية المحببة، وهي التأمل العميق الذي لا تشتته مشاغل الحياة ومصادر القلق فيها. فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه، ويمكث الليالي قبل أن يرجع إلى أهله، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود.

وكانت تشجعه على ذلك النهج القويم الذي ترك في نفسها أعمق الأثر، وهيأها لتكون أول من آمن برسول الله.

علت مكانة محمد بين أهل مكة في تلك الفترة لما اشتهر به من صدق وأمانة واستقامة وبعده عن سفاسف الأمور، ولقبوه بالأمين.

كانت رغبة محمد في الخلوة والتأمل تتزايد يومًا بعد يوم حتى بلغت ذروتها في العام الذي اختاره الله فيه لرسالته، وكان يتعبد في غار حراء على الملة الحنيفية التي أتى بها إبراهيم عليه السلام، واستمد الإسلام منها أساس دعوته، وكانت هذه الخلوات إعدادًا روحانيًا له من الله سبحانه لحمل أقدس رسالة عرفتها البشرية، وهي الرسالة الخاتمة (الإسلام).

بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم

هكذا هيأ الله محمدًا لاستقبال دعوته، فلما بلغ أشده وبلغ أربعين سنة بدأ في تلقي الوحي، وكان ذلك في السابع عشر من شهر رمضان. ذات يوم وهو مستغرق في عبادته وتأمله كعادته، إذ هتف به هاتف يقول له: يا محمد، أنت رسول الله! فيُروى أن رسول الله قال: "فجثوت لركبتي وأنا قائم، ثم زحفت ترجف بوادري (عروق تضطرب عند الفزع)، ثم دخلت على خديجة فقلت: زملوني... زملوني، حتى ذهب عني الروع. ثم أتاني فقال: يا محمد، أنت رسول الله. قال: فلقد هممت أن أطرح نفسي من حالق (جبل عالٍ) من جبل، فتبدي لي حين هممت بذلك فقال: يا محمد، أنا جبريل، وأنت رسول الله. ثم قال: اقرأ. قلت: ما أقرأ؟ قال: فأخذني فغطّني ثلاث مرات (أي ضمني بشدة) حتى بلغ مني الجهد، ثم قال: اقرأ باسم ربك الذي خلق. فقرأت".

فأتت خديجة فأخبرتها خبري، فقالت: أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدًا، ووالله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة، وتحمل الكل، وتُقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

وانطلقت خديجة برسول الله إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، الذي كان قد تنصر، واستحكم، وقرأ الكتب. فلما عرف ورقة من رسول

الله ما حدث قال: "هذا الناموس (الشريعة) الذي نزل على موسى بن عمران. ليتني فيه جذع (صغير السن)، ليتني أكون حيًّا حين يخرجك قومك". فقلت: أمخرجيَ هم؟ قال: نعم، إنه لم يجيء رجل قط بما جئت به إلا عودي، ولئن أدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا".

ألقت كلمة ورقة الطمأنينة في نفس رسول الله، وعرفته أن ما مر به من تجربة لم يكن إلا استهلالًا لأعظم رسالة.

كيف سارت دعوة
رسول الله صلى الله عليه وسلم

(الدعوة في مرحلة الكتمان)

كان على الرسول أن يستجيب للأمر الإلهي "قم فأنذر"، ولكن كانت الحكمة تقتضي ألا يجهر الرسول بدعوته على الملأ وهي ما زالت وليدة ناشئة لم تكتسب بعد أنصارًا، ولهذا كان أسلوبه في تلك المرحلة أن يدعو من يثق فيهم، فكان أول من صدقه وآمن به زوجته خديجة رضي الله عنها، وأول من آمن من الصبيان علي بن أبي طالب، ومن الرجال أبو بكر الصديق، ومن الموالي زيد بن حارثة.

وقد كان لإسلام أبي بكر أثر قوي في تأييد الدعوة وضم مزيد من الأنصار إليها، فأسلم على يديه عثمان بن عفان والزُّبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله. وكان الرسول يلتقي بالمسلمين سرًا في دار الأرقم بن أبي الأرقم ليبلغهم ما ينزل من الوحي من تعاليم الإسلام، وظل المسلمون بدار الأرقم حتى أسلم عمر بن الخطاب. ولقد دعا الرسول عمه أبا طالب

إلى الإسلام، وقد قال له أبو طالب: "أي بن أخي، إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه، ولكن _ والله _ لا أُخلص إليك بشيء تكرهه ما بقيت".

(الدعوة في مرحلة الجهر)

أمر الله نبيه بعد مبعثه بثلاث سنين أن يصدع بما جاءه منه ويدعوا إليه، فقال له: "فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين". فبمقتضى هذا الأمر الصريح سيدخل في مواجهة مع مشركي مكة ومع تقاليد الوثنية المتأصلة في نفوسهم، ورغم جسامة العبء مضى في تنفيذ الأمر الإلهي دون تردد، فبدأ بدعوة عشيرته الأقربين. وقد كان الرسول يعلم أنه يحمل أمانة ثقيلة وأنه واجد في سبيل أدائها كل مشقة، وكانت كلمة ورقة بن نوفل ما زالت تتردد في أذنيه: "إنه لم يجيء رجل قط بما جئت به إلا عودي"، ولهذا مضى في طريقه وهو على استعداد لمواجهة كل التحديات والصبر عليها. لم تأخذ قريش ما جاء به الرسول في البداية مأخذ الجد، ولهذا كانت مقاومتها له مقصورة على الاستهزاء به والسخرية من دعوته، فلم يكن يدور بخاطرها أن الرسول سوف يستمر طويلًا في دعوته هذه عندما يلمس إعراض قومه، ولهذا اكتفت بأن تصد عنه وتتجاهل أمره.

قريش ومقاومة الدعوة

كانت قريش تتخذ آلهة من دون الله: أحجارًا لا تضر ولا تنفع، ومن هنا جاء الصدام المباشر بين دعوة الإسلام وعقيدة القرشيين الذين بدأوا يدركون مدى خطورة هذه الدعوة على موروثاتهم وتقاليدهم ونظام حياتهم، وأنها ما جاءت إلا لتهدم معتقدات وقيمًا وعادات تأصلت في مجتمعهم.

فذهبوا إلى أبي طالب عم الرسول فقالوا له: "يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلَّ آباءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلاف فنكفيكه". ولكن أبا طالب لم يزد على أن ردهم ردًا جميلًا. وهكذا مضى الرسول على ما هو عليه يظهر دين الله ويدعو إليه ويهاجم الوثنية دون أن يلقي اعتراضًا من عمه.

بعد أن استنفدت قريش كل وسائلها في الضغط على أبي طالب دون جدوى، بدأت تلجأ إلى أسلوب آخر من أساليب الضغط وهو تعذيب المستضعفين من أصحاب رسول الله. أما رسول الله فقد منعه الله منهم بعمه أبي طالب. وقد ثبت كل قبيلة على من فيها من ضعاف المسلمين، فجعلوا يعذبونهم بالحبس والضرب والجوع والعطش وبرمضاء مكة في شدة الحر.

هكذا لجأت قريش إلى ذلك الأسلوب الفظ القاسي في مقاومة الدعوة، وقد شق على رسول الله ما يلقاه أصحابه من الأذى جراء تمسكهم بدعوة الحق، فأخذ يفكر في وسيلة تخلصهم من هذا العذاب وتتيح لهم أن يعبدوا الله دون خوف على عقيدتهم أو دمائهم أو أموالهم.

الهجرة إلى الحبشة

اشتد الأذى بأصحاب رسول الله، وخاصة المستضعفين فيهم، واتسعت دائرة هذا الأذى لتبسطه على من اتبع محمدًا من بطون قريش نفسها. فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخرجوا إلى أرض الحبشة، وكان بها ملك صالح يقال له النجاشي لا يظلم أحدًا بأرضه، فذهب إليها عامتهم لما قُهروا بمكة وخاف عليهم الفتن ومكث ولم يبرح.

يقسم المؤرخون هجرة المسلمين إلى الحبشة إلى هجرتين:

الهجرة الأولى: كانت في رجب من السنة الخامسة للبعثة النبوية وضمَّت اثني عشر رجلًا وخمس نسوة، منهم رقية بنت رسول الله وزوجها عثمان بن عفان. وعاد المسلمون بعد ثلاث أشهر من هجرتهم إلى الحبشة بسبب الظروف التي أحاطت بهؤلاء المهاجرين، لم تكن مشجعة تمام التشجيع للمكوث في الحبشة، فقد كانوا عددًا قليلًا مما عمق إحساسهم بالغربة رغم حسن استقبال النجاشي لهم، ولكنهم لما عادوا إلى مكة بلغهم أن قريشًا أشد ما كانوا عداوة لرسول الله، فدخل من دخل منهم بجوار، ودخل بعضهم مستخفيًا، وهكذا تهيأت الظروف للهجرة الثانية إلى الحبشة.

الهجرة الثانية: تعرض المهاجرون الأولون للأذى بعد عودتهم إلى مكة، وغيرهم من المسلمين، فهاجروا إلى الحبشة ثانيةً، من رجع منهم وانضم إليهم كثير من المسلمين التماسًا لحماية عقيدتهم وأرواحهم، ونرجح أنها كانت في مطالع العام السادس للبعثة. ولا يتفق المؤرخون حول عددهم، فيذكر ابن هشام أنهم كانوا ثلاثة وثمانين رجلًا سوى نسائهم وأطفالهم، إن كان عمار بن ياسر فيهم، فإن لم يكن فيهم فقد كانوا اثنين وثمانين.

أرسلت قريش بعض مبعوثيها إلى النجاشي في محاولة منها لصرفه عن إيواء المسلمين وتقديم الحماية لهم، ولكن محاولة قريش للوقيعة بين النجاشي وبين المهاجرين المسلمين باءت بالفشل، وذلك عندما طلب النجاشي من جعفر بن أبي طالب أن يقرأ عليه بعض ما أنزل على محمد، فقرأ عليه جعفرًا صدرًا من سورة مريم، فلما وقف النجاشي على معانيها قال: "هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة"، وأبى أن يرد المهاجرين إلى قريش. وفي هذا الجو الآمن طالت إقامة بعض المسلمين إلى أربعة عشر عامًا تقريبًا، بينما آثر بعضهم العودة إلى مكة قبل هجرة الرسول إلى المدينة عندما رأوا الظروف مواتية لذلك. وقد مات بعض المسلمين بأرض الحبشة ودُفنوا هناك، كما أن بعض الأحباش اعتنقوا الإسلام على أيدي هؤلاء المهاجرين.

إن هجرة الحبشة توضح المدى الذي وصل إليه مشركو قريش في محاولاتهم اليائسة من أجل القضاء على الدعوة الإسلامية وملاحقة أنصارها حيث وجدوا، ولكن دعوة الحق كانت تمضي في ثبات، وكان يمضي في خط موازٍ لها كيد المشركين وعنادهم، وكلما فشل أسلوب لجأوا إلى سواه: "ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين".

إسلام حمزة وعمر بن الخطاب

وتأثير ذلك في مسار الدعوة

كان حمزة أسبق إسلامًا من عمر بن الخطاب. أسلم حمزة بعد دخول الدعوة الإسلامية في مرحلة الجهر، بعد أن بدأ المشركون يوجهون أذاهم المباشر إلى الرسول. يروي المؤرخون أن أبا جهل مر برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس عند الصفا، فأذاه وشتمه فلم يرد عليه رسول الله، فعلم حمزة بذلك وهو على شركه، فاحتمله الغضب، وكان راجعًا من رحلة صيد له، فلم يطُف بالكعبة كعادته، بل انطلق يبحث عن أبي جهل، فأقبل نحوه ورفع قوسه فضربه ضربةً شجت رأسه شجةً منكرة، وقال: "أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول؟، فرد ذلك علي إن استطعت!"، وكان حمزة أعز قريش وأشدها شكيمة. هكذا دخل حمزة في الإسلام منذ ذلك الوقت، وعرفت قريش أن رسول الله قد عز وامتنع، وأن حمزة سيمنعه، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه.

جاء إسلام عمر بن الخطاب بعد إسلام حمزة في العام السادس للبعثة. كان عمر قبل إسلامه غليظًا قاسيًا، يلقي منه المسلمون أذى وشدة، وكانوا يستبعدون إسلامه لما يرون من قسوته، حتى إن بعضهم قال: "لا يسلم عمر حتى يسلم حمار الخطاب". وكان عمر

يرى أن الدين الجديد هو سبب تفريق أمر قريش، ومن هنا صمم على أن يقتل محمدًا بوصفه مسؤولًا عن ذلك، فلقيه رجل من بني عدي كان مسلمًا يكتم إسلامه، فقال له: "أين تريد يا عمر؟" قال: "أريد محمدًا فأقتله!"، فقال له: "والله لقد غرتك نفسك يا عمر! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟" وكانت أخت عمر قد أسلمت هي وزوجها وأخفيا إسلامهما عن عمر خوفًا من بطشه، فأخبره الرجل بذلك. فذهب إليهما، وكان عندهما خباب بن الأرت يقرئهما القرآن من صحيفة كانت معه، فلما أحسوا بقدوم عمر استتر خباب وأخفَت فاطمة أخته الصحيفة، وكان عمر قد سمع قراءة القرآن، فقال: "ما هذه الهينمة (كلام لا يُفهم) التي سمعت؟" فلم يجيباه، فأخبرهما بما علم من إسلامهما، ثم بطش بسعيد زوج أخته فاطمة، فحاولت أخته أن تدافع عن زوجها فضربها، فسال دمها، فلما رأى عمر الدم رق لها وندم، وطلب منها الصحيفة، وكانت بها سورة طه، فطلبت منه أن يغتسل قبل أن تعطيه الصحيفة، فاغتسل فأعطتها له. فلما قرأ صدرًا مما فيها قال: "ما أحسن هذا الكلام، وأكرمه" فلما لمس خباب تأثر عمر بالقرآن، خرج عليه وقال له: "والله يا عمر إني لأرجو أن يكون الله خصك بدعوة نبيه صلى الله عليه وسلم، فإني سمعته أمس وهو يقول: اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام (حمزة) أو بعمر بن الخطاب"، فقال عمر: "فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه وأسلم". فذهب إلى رسول الله وكان معه نفر من أصحابه، فلما دخل عمر أخذ الرسول

بمجمع ردائه ثم جذبه جذبة شديدة، وقال له: "ما جاء بك يا ابن الخطاب؟ والله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة!"، فقال عمر: "يا رسول الله جئت لأؤمن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله"، فكبر رسول الله، وهكذا عُزَّ المسلمون وامتنعوا بإسلام حمزة وعمر.

اتجاه قريش

في مقاومة الدعوة بعد هجرة الحبشة

تعد هجرة الحبشة خطّا فاصلًا في تاريخ مقاومة مشركي قريش للدعوة الإسلامية، وارتكزت هذه المقاومة على محورين هما:

(إنزال الأذى المباشر بالرسول صلى الله عليه وسلم)

كانت قريش قبل الهجرة إلى الحبشة تراعي مكانة أبي طالب، فلا تبسط يدها بالسوء إلى محمد، ولكن بعد الهجرة فقد أسقطت قريش هذا الاعتبار من حسبانها، فوجهت أذاها المباشر إلى الرسول، بل إن أبا طالب نفسه امتدت إليه بعض آثار هذا الأذى. سلطت في البداية قريش على الرسول ألوانًا من الأذى النفسي، فرمته بالسحر والكهانة والجنون، ولكن الرسول لم يُعرف عنه شيء من هذه الصفات، فلم يتسبب ذلك في صرف الناس عن دعوته، ثم بدأت قريش تبسط لسانها في الرسول بالسب المباشر القبيح، وبدأت تناله بالأذى البدني، ومن بين ما اشتهروا بإيذاء الرسول: أبو جهل، وأبو لهب، وأمية بن خلف، وأخوه أبي بن خلف، وعقبة بن أبي معيط.

ولكن مع كل هذا الأذى الذي لقيه رسول الله من هؤلاء ومن غيرهم من وجوه قريش في المرحلة التي نتناولها الآن، لم يزده إلا تمسكًا بدعوته وإصرارًا على حمل أمانة تبليغها.

(حصار قريش لبني هاشم وبني المطلب)

كانت هذه الخطوة أكثر قوة وتطرفًا، فقد كانت ضد رسول الله وغير المسلمين من عشيرته من بني هاشم وبني المطلب وعلى رأسهم أبو طالب. فقد فرضت هذه الخطوة ضدهم نوعًا من الحصار الاقتصادي والاجتماعي، ويهدف ذلك إلى القضاء عليهم ماديًا ومعنويًا بتجويعهم وعزلهم، فيسهل على قريش أن تملي عليهم شروطها أو تتركهم لمصيرهم، وكان ذلك في العام السادس من البعثة بعد هجرة الحبشة. فقد تعاقدت قريش في صحيفة ألا يزوجوا أحدًا من بني هاشم وبني المطلب، ولا يتزوجوا منهم، ولا يبيعوهم شيئًا، ولا يبتاعوا منهم، وقد وقف بنو هاشم وبنو المطلب، مسلمهم وكافرهم، في هذه المحنة صفًا واحدًا مع رسول الله. فأقاموا جميعًا في الشعب ثلاث سنين، حتى أنفق رسول الله ماله، وأنفق أبو طالب ماله، وأنفقت خديجة مالها، وصاروا إلى حد الضر والفاقة. لجأت قريش إلى أسلوب المساومة لعلها تظفر بما عجزت عنه قبل ذلك، فلم يجيبهم رسول الله.

ثم أحس بعض رجال قريش بمدى الجُرم الذي يرتكبونه ضد بني عمومتهم، فسعوا إلى نقض هذه الصحيفة، وأول من سعى إلى تكوين جبهة مقاومة قرشية لهذه الصحيفة هشام بن عمرو بن ربيعة، ومعه أربعة من وجهاء قريش، فاتفقوا على رفع هذه الصحيفة من جوف الكعبة وتمزيقها، وعندما تقدموا لذلك وجدوا أن الأرضة قد أكلتها إلا عبارة "باسمك اللهم"، وهكذا انتهى الحصار وخرج منه المسلمون متمسكين بدعوة الدين الجديد، ملتفين حول الداعي إليه.

وفاة أبي طالب وخديجة

توفي كل من أبي طالب وخديجة في عام واحد، في العام العاشر من البعثة، قبل الهجرة إلى المدينة بثلاث سنين. فتركت وفاتهما في نفسه ألمًا عميقًا، وعندما علم الرسول بوفاة عمه عظم ذلك في قلبه واشتد جزعه. أما خديجة فقد كانت عونًا صادقًا للرسول في كل مراحل حياته منذ زواجه منها حتى وفاتها، وعبر عن مدى تأثره بوفاتها فقال: "اجتمعت على هذه الأمة في هذه الأيام مصيبتان لا أدري بأيهما أنا أشد جزعًا"، وقال رسول الله لعائشة يومًا وهو غاضب من كلامها عن خديجة: "لا والله ما أبدلني الله خيرًا منها، آمنت إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني في مالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها أولادًا إذ حرمني أولاد الناس"، وقد توفيت خديجة عن خمس وستين سنة.

ليس عجيبًا إذن أن يُطلق على العام الذي ماتا فيه عام الحزن، وليس عجيبًا كذلك أن تزداد جرأة المشركين عليه بعد أن فقد هذين النصيرين، وخاصة عمه أبا طالب الذي كان يدفع عنه كثيرًا من طيشهم.

تطور الدعوة في مكة منذ وفاة أبي طالب وخديجة حتى الهجرة إلى المدينة

تعد السنوات الثلاث التي تلت وفاة أبي طالب وخديجة من أكثر الفترات حسمًا في تاريخ الدعوة الإسلامية بمكة، وأهم هذه الأحداث:

١- "رحلة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الطائف"

عندما توفي أبو طالب حل أبو لهب محل أخيه في زعامة بني هاشم، فلم يجد الرسول إلا مزيدًا من التحريض عليه والكيد له. ففكر الرسول في الذهاب إلى مدينة الطائف ليعرض على أهلها من ثقيف دعوة الإسلام، وكان يراوده الأمل في أن تجد الدعوة ملاذًا آمنًا في الطائف، تلك المدينة الحصينة التي يعرف أهلها بالبأس وقوة الشكيمة، فخرج إليها لثلاث ليالٍ بقين من شوال سنة عشر من البعثة، وكان بصحبته مولاه زيد بن حارثة، فالتقى هناك بثلاثة من أشراف ثقيف، فعرض عليهم الإسلام فأعرضوا عنه وسخروا منه، ثم أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويرجمونه ويصيحون به، فاضطر الرسول إلى أن يلجأ إلى بستان محتميًا به، فجلس هناك

يناجي ربه، وبعد هذه التجربة القاسية رجع بصحبة مولاه زيد إلى مكة، وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه. من هنا لم يستطع أن يدخل مكة بدون جوار، والتجأ إلى جوار غير واحد بها، فلم يجره إلا المطعم بن عدي. هكذا توالت المحن على الرسول، لكنه رغم هذا كله لم ييأس من نصر الله.

٢- "الإسراء والمعراج"

أراد الله به نوعًا من الدعم النفسي للرسول في محنته حتى يستطيع أن يواصل طريق الدعوة واثقًا أن الله حافظه ومؤيده، ويختلف العلماء في السيرة حول التاريخ الدقيق لحادث الإسراء والمعراج، وقد فرضت الصلوات الخمس عندئذ بهيئتها المعروفة. عندما أذاع الرسول حديث الإسراء والمعراج في مكة كان له صدى عميق في نفوس من سمعوه، سواء كانوا مشركين أم مسلمين.

أما المشركون فنحن لا نتوقع منهم سوى الإنكار التام، فقد أنكروا رسالة الرسول من أساسها من قبل ذلك. أما المسلمون فيتضح ذلك من موقف أبي بكر حينما ذهب إليه الناس يخبرونه أن محمد يقول إنه أُسري به إلى المسجد الأقصى وعرج به من هناك إلى السماء، فقال أبو بكر: "إنكم تكذبون عليه"، فقالوا: "والله إنه ليقول!" فقال: "والله إن كان قاله لقد صدق، فما يعجبكم من ذلك؟ فوالله إنه ليخبرني إن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار، فأصدقه، فهذا أبعد مما تعجبون منه"، وقد لقب الرسول أبا بكر بالصديق منذ ذلك الوقت.

ولا شك أن رد أبي بكر على المشركين في البداية بقوله: "إنكم لتكذبون عليه" يدل على أن حديث الإسراء والمعراج كان مفاجأة للمسلمين جميعًا، فضلًا عن الخاصة منهم كأبي بكر، ولهذا يُروى أن

بعض المسلمين ارتد عند سماعه بذلك الحديث، وكان ما يسند إليه الكفار هو أن الإبل تسير شهرًا من مكة إلى الشام ذاهبة وشهرًا آتية، فكيف يذهب محمد ويعود في ليلة واحدة؟ ومن هنا كان حديث الإسراء والمعراج اختبارًا ليقين المسلمين وتمحيصًا لإيمانهم، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: "وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس..."

٣- "بيعتا العقبة"

بدأ الرسول أن يعرض نفسه في المواسم على قبائل العرب، يدعوهم إلى دين الله، ويخبرهم أنه نبي مرسل، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين لهم ما بعثه الله به، ولم تكن تلك مهمة سهلة، بل ذادت تعقيدًا أمام الرسول لأن مشركي قريش كانوا يحاولون الوقوف في وجهه وصد الناس عنه وهو يبلغ دعوته في المواسم، ويُروى أن أبا لهب في عكاظ يتبع رسول الله ويقول: "يا أيها الناس، إن هذا قد غوى فلا يغوينكم عن آلهة آبائكم"، ورسول الله يفر منه وهو على أثره.

على أن هذا كله لم يزد الرسول إلا إصرارًا على المضي في طريق تبليغ رسالته، وكانت آيات الوحي تتوالى نزولها عليه لتشد من أزره، ضاربة له المثل بمن أرسلوا قبله فصبروا على التكذيب والأذى.

قبل الهجرة بعامين خرج الرسول في أحد المواسم، فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم، فبينما هو عند العقبة "مشارف مكة" إذ لقي ستة رجال من الخزرج، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن، فأجابوه وصدقوه، وقالوا له: "إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم،

وعسى الله أن يجمعهم بك، وسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك"، ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم. فلما قدم هؤلاء يثرب على قومهم، ذكروا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

"بيعة العقبة الأولى وانتشار الإسلام في يثرب"

بعد مضي عام على لقاء الرجال الستة من الخزرج بالرسول، لقي الرسول اثني عشر رجلًا من الأنصار في العام الثاني عشر من البعثة بالعقبة، فبايعوه البيعة التي اشتهرت باسم بيعة العقبة الأولى، وكانوا عشرة من الخزرج واثنان من الأوس.

يقول عبادة بن الصامت، وكان من الذين شاركوا في **البيعة:** "كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلًا، فبايعنا رسول الله على بيعة النساء، وذلك قبل أن يفترض علينا **الحرب:** ألا نشرك بالله شيئًا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئًا فأمركم إلى الله عز وجل، إن شاء غفر وإن شاء عذب".

عندما رجع أصحاب بيعة العقبة الأولى إلى يثرب، أرسل معهم الرسول مصعب بن عمير ليقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين.

ازداد الإسلام انتشارًا بعد بيعة العقبة الأولى بفضل حركة الدعوة التي قام بها السابقون في الإسلام من الأنصار، وبفضل جهد مصعب بن عمير.

"بيعة العقبة الثانية"

لما وافى ذو الحجة من العام الثالث عشر للبعثة، أي قبل الهجرة بثلاثة أشهر، قدم إلى العقبة ثلاثة وسبعون رجلًا من مسلمي يثرب وامرأتان، وجاء الرسول معه عمه العباس، وكان لم يُسلم بعد، لكنه أراد أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له لأنه عرف أن هناك حلفًا بينه وبين أهل يثرب بما قد يترتب على ذلك من حرب ضد قريش.

فقال رسول الله: "أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم"، فقال البراء، وكان سيدًا في قومه من الخزرج: "والذي بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه أزرنا (نساءنا)". فبايعوا رسول الله، وسأل نفر منهم رسول الله سؤالًا كان يدور بخاطر بعض الأنصار، حيث قال: "يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالًا، وإنا

قاطعوها (يقصد اليهود)، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟" فتبسم رسول الله وقال: "بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم". ثم طلب الرسول أن يختاروا من بينهم اثني عشر نقيبًا، فاختاروهم له وهم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، وبسط لهم الرسول يده فبايعوه.

هذه هي بيعة العقبة الثانية أو العقبة الكبرى، ويطلق عليها أحيانًا بيعة الحرب، وتعد هذه البيعة نقطة تحول كبرى في تاريخ الإسلام، فكانت بيعة على النصرة التامة لرسول الله ولدينه كما قال العباس بن عبدة: "إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس"، ومن هنا ذهب أهل يثرب بذلك اللقب الخالد في التاريخ "الأنصار"، وكانت مقدمة حقيقية لهجرة الرسول وأصحابه إلى المدينة.

"الهجرة إلى المدينة"

كان واضحًا من خلال بيعة العقبة الثانية أن يثرب ستكون المركز الجديد للدعوة الإسلامية وحصنًا لها. كما أن يثرب قدمت للرسول والمسلمين ما لم تقدمه الحبشة من لسان مشترك وبيئة واحدة، وأهم من ذلك كله، لتقدم لهم الأنصار إخوة في دين الله هم مستعدون لأن يمنعوهم مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم، وأن يبذلوا دماءهم دون ذلك. هكذا فتح رسول الله لأصحابه باب الهجرة إلى يثرب بمجرد أن تكون للإسلام قاعدة هناك. فبدأ المسلمون ينفذون أمره دون إبطاء، فخرجوا أرسالًا، وأقام رسول الله بمكة ينتظر أن يأذن له ربه بالخروج من مكة. أدركت قريش خطورة الموقف، لأن ذلك يعني أن تصبح يثرب حصنًا للإسلام بمن أسلم من أهلها وبمن انضم إليهم من مسلمي مكة، ويترتب على ذلك أولًا تهديد لأمن قريش بمكة، ثانيًا تهديد لتجارة قريش إلى الشام لأن يثرب تقع في الطريق بين مكة والشام. أكثر ما يفزع قريش أن يلحق رسول الله بأصحابه بيثرب، لأنه إن فعل أصبحت للمسلمين هناك قيادة توشك أن تجتاحهم بحرب تقضي على نظامهم كله. لذلك اجتمعوا له في دار الندوة، واقترح أبي جهل أن يأخذوا من كل قبيلة شابًا فتيًّا، ثم يعطوا كل واحد منهم سيفًا صارمًا، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة ضربة رجل واحد فيقتلوه، وبهذا يتفرق دمه في القبائل جميعًا فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعًا

فيرضوا بأخذ الدية ويدفعونها لهم، وهكذا تفرق الجميع وهم مجتمعون على رأي أبي جهل.

لقد اتخذ الرسول قرار الهجرة بعد أن أذن الله له بذلك في نفس الليلة التي بيتت فيها قريش قتله، ولم تكن تعلم بقراره ذلك. وهكذا اجتمعوا وأحاطوا ببيته عندما جنّ الليل ليثبوا عليه ويقتلوه، وفي تلك الليلة أمر الرسول علي بن أبي طالب أن ينام في فراشه ويتشح ببردته الخضراء تضليلًا للمشركين، ثم خرج في سكون الليل وقد أخذت القوم غشاوة فلم ينتبهوا إليه، وهو يتلو أول سورة يس، وتوجه الرسول إلى بيت أبي بكر الذي كان قد جهز راحلتين لهم، وخرج الاثنان من باب صغير خلفي في بيت أبي بكر، واستأجر رجلًا وهو عبد الله بن أريقط ليدلهما على الطريق، فقد قرر الرسول الاختفاء مع أبي بكر في غار ثور بمكة حتى يخفّ بحث الكفار عنه، ومكثا هناك ثلاثة أيام، وخلال هذه المدة كان عبد الله بن أريقط يسمع ما يقول المشركون عنهم أثناء النهار، ثم يأتيهما بما سمع ليلاً حتى يتصرفا في ضوء ذلك.

وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما بالطعام إذا أمست بما يحتاجان إليه، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر كانت مهنته أن يرعى الغنم بين أهل مكة نهارًا، ثم يتبع بالغنم أثر عبد الله وأسماء في طريقهما من وإلى الغار حتى يغطي عليه فلا يجد المشركون دليلًا على مخبأ الرسول وأبي بكر.

وفي صبيحة اليوم الثالث أتى عبد الله بن أريقط ومعه الراحلتان اللتان أعدهما أبو بكر، وفي الساعة المتفق عليها انطلقوا الثلاثة من طريق غير مألوف للمشركين.

عندما استنفدت قريش وسائل البحث عن رسول الله، جعلت لمن يأتي به حيًّا أو ميتًا مائة من الإبل، فطمع في ذلك سُراقة بن مالك وانطلق نحو المدينة حتى دنا من رسول الله والذين معه، فكبّا به جواده عدة مرات قبل أن يدركهم. فتشائم سراقة ونادى رسول الله معلنًا إسلامه، وعرض عليه ما يستطيع من عون، فقال له رسول الله: "أخف عنا"، فامتثل سراقة لهذا وأخذ يضلل المشركين.

وهذه كانت آخر محاولة من قريش بذلتها في سبيل إحباط هجرة الرسول، وبعد فشلها أصبح الطريق إلى يثرب آمنًا أمام رسول الله، فوصل أولًا إلى قباء على مشارف يثرب في يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول في العام الثالث عشر للبعثة (٦٢٢م)، وهناك أقام أربعة أيام حيث أقام مسجد قباء وهو أول مسجد بني في الإسلام.

وأثناء إقامتهما هناك لحق بهم علي بن أبي طالب بعد أن أقام بمكة ثلاثة أيام عقب هجرة الرسول حتى يؤدي الودائع التي كانت عند رسول الله إلى الناس، ثم توجه الجميع صوب يثرب، فدخلها رسول الله ومن معه في نفس اليوم الذي غادروا فيه قباء، وهو يوم الجمعة السادس عشر من ربيع الأول، وقد أدركهم وقت صلاة الجمعة في

وادي رانوناء، فصلاها رسول الله بالمسلمين هناك، فهي أول جمعة صلاها رسول الله بيثرب. ثم ركب ناقته وحوله أصحابه، وكلما مر بدار من دور الأنصار أخذوا بزمام ناقته ودعوه إلى أن ينزل لديهم، فكان الرسول يقول: "دعوها، فإنها مأمورة، فإنما أنزل حيث أنزلني الله"، فانتهت إلى دار أبي أيوب الأنصاري، فدخل بيت أبي أيوب حتى يُبنى مسجده ومساكنه.

وبذلك أصبحت يثرب بعد أن اتخذها الرسول مقرًا له ومركزًا للدعوة الإسلامية تعرف باسم المدينة.

"المناوشات الأولى

بين المسلمين ومشركي قريش"

بعد الهجرة إلى المدينة نزل إذن الله للمسلمين بالقتال، وذلك بسبب كونهم مظلومين وهم أصحاب رسول الله. كان المشركون يؤذونهم أذًى شديدًا، وكان الرسول يقول لهم: "اصبروا فإني لم أؤمر بالقتال". وبعد الهجرة وعند نزول أول آية أُذن فيها بالقتال، وذلك ردًا على ما لحق بهم من أذًى واضطهاد، وعلى ما اضطروا إليه من تركهم ديارهم وأموالهم. فليس من العدوان أن ينتصروا لأنفسهم وأن يستردوا بعض ما سلبه هؤلاء منهم. لقد وجد المسلمون أنفسهم في حالة حرب مع مشركي مكة، ولذلك يبذل كل طرف قصارى جهده لإضعاف الطرف الآخر، ولما كان اقتصاد مكة ورخاؤها قائمًا على التجارة، فقد كانت أشد الضربات إيلامًا هي تلك التي تعرقل طريق تجارتهم، ومن هنا رأى الرسول أن يشن بعض الحملات على قوافِل المكيين التجارية، ولم تكن تلك الحملات وسيلة لإيجاد مورد رزق، بل كانت استردادًا لبعض حق، ثم إنها لم تكن بدءًا بعدوان، بل كانت ردًا على عدوان سابق وأيضًا وسيلة مشروعة لإضعاف الخصم في قانون الحروب.

من هذه المناوشات:

أولى الحملات وهي سرية، تألفت من ثلاثين رجلًا بقيادة حمزة بن عبد المطلب، وتوجهت لتعترض قافلة تجارية لقريش جاءت من الشام تريد مكة، ولقى حمزة أبا جهل في ثلاثمائة رجل، لكن حُجز بينهم وتفرقوا، ولم يكن بينهم قتال.

أرسل الرسول عبيدة بن الحارث بن المطلب في ستين أو ثمانين رجلًا من المهاجرين، فالتقوا مع مشركي قريش بقيادة أبي سفيان، ولم يكن بين الفريقين قتال إلا أن سعد بن أبي وقاص رمى يومئذ بسهم، فكان أول سهم رُمي به في الإسلام.

خرج رسول الله بنفسه معترضًا لعير قريش فيما عُرفت بغزوة "الأبواء" بين مكة والمدينة، فلم يلقِ قريش. وفي نفس السنة خرج أيضًا بمائتين من أصحابه ليعترضوا عيرًا لقريش، كان فيها أمية بن خلف ومائة رجل من قريش وألفان وخمسمائة بعير، وعُرفت بغزوة "بواط"، ثم رجع الرسول ولم يلق كيدًا ولم تحدث مواجهة بين الطرفين.

في نفس العام خرج الرسول في بعض أصحابه من المهاجرين يطلب كرز بن جابر الفهري، الذي كان قد أغار على سَرح المدينة (إبلها وأغنامها)، وقد طلبه رسول الله حتى بلغ بدرًا فلم يدركه، ولهذا سميت هذه الغزوة بغزوة بدر الأولى.

وفي نفس العام أيضًا خرج رسول الله في مائة وخمسين من المهاجرين يعترض عيرًا لقريش، وعُرفت باسم غزوة "ذات العشيرة"، ولم تحدث مواجهة بين الطرفين، لكن قد وادع الرسول فيها بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة.

وفي كل هذه السرايا والغزوات لم تسفر عن قتال، ولم يحصل المسلمون فيها على غنائم من المشركين، لكن قريشًا أصبحت على يقين من أن المسلمين أصبحوا قوة لا يستهان بها. وكان كل المشتركين بها من المهاجرين صحابة رسول الله، ولم يبعث رسول الله أحدًا من الأنصار حتى غزا بهم بدرًا، وذلك لأنهم شرطوا أن يمنعوه في دارهم.

"سرية نخلة ومقدمات غزوة بدر"

في رجب من السنة الثانية للهجرة بعث رسول الله عبدالله بن جحش في ثمانية رجال من المهاجرين، وكتب له كتابًا وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين، ثم ينظر فيه فيُمضي ما به دون أن يستكره أحدًا من أصحابه. فلما سار عبدالله يومين فتح الكتاب، فإذا فيه: "إذا نظرت في كتابي هذا فسر حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشًا وتعلم لنا من أخبارهم"، فمضوا جميعًا ولم يتخلف أحد منهم. وبعد ذلك تخلف اثنان منهم بسبب أن بعيرًا لهما كانا يتبادلان الركوب عليه، فضل منهما فذهبا يبحثان عنه، واستمر البقية حتى نزلوا "نخلة"، فمرت به عير تحمل تجارة لقريش، وكان فيهم من مشركي قريش عمرو بن الحضرمي، وعثمان بن عبدالله بن المغيرة المخزومي، وأخوه نوفل، والحكم بن كيسان، وكان ذلك في آخر يوم من رجب، أحد الأشهر الحرم. فأجمع أصحاب عبدالله على قتالهم بعد تردد، فرمى واحد منهم عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، وأسر المسلمون عثمان بن عبدالله والحكم بن كيسان، أما نوفل فقد هرب وأعجز القوم، واستولى المسلمون على عير قريش، وقدموا بها مع الأسيرين على رسول الله بالمدينة، لكن الرسول لم يطب نفسًا بما فعلوا، بل عنفهم وقال لهم: "ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام"، ورفض أن يقبل شيئًا من الغنيمة.

كَثُر تعنيف المسلمين لهم، وأصبحت المدينة تفور فور المرجل، واستغلت قريش هذا الموقف فحاولت التشنيع بالمسلمين وقالت: "قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام فسفكوا فيه الدماء وأخذوا فيه الأموال وأسروا فيه الرجال".

انتهزت اليهود الفرصة للإيقاع بين قريش والمسلمين، فأنزل الله قوله: (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا...) هنا اطمأن رسول الله والمسلمون، وقبض الرسول العير والأسيرين، ثم أرسلت قريش فداء الأسيرين، فرفض رسول الله ذلك حتى يقدم الصحابيان اللذان تخلفا، فقال لهم رسول الله: "إنا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم"، ولما قدما أطلق رسول الله سراح الأسيرين، لكن واحدًا منهم وهو الحكم بن كيسان أسلم وحسن إسلامه وبقي عند رسول الله حتى استشهد يوم بئر معونة، وبهذا فإن الذي هاج واقعة بدر وسائر الحروب التي كانت بعد ذلك ما كان من قتل عمرو الحضرمي وعبد الله التميمي.

"موقعة بدر"

١٧ رمضان ٢هـ – مارس ٦٢٤

السبب: بعد سرية نخلة بقليل خرج أبو سفيان بن حرب يقود قافلة تجارية ضخمة إلى الشام مكونة من ألف بعير، وكان معه ما يقرب من سبعين رجلًا من قبائل قريش كلها، فلما علم رسول الله أمر أصحابه أن يخرجوا معه لينتظروهم في طريق العودة حتى يستردوا جانبًا من حقوقهم التي اغتصبها كفار قريش. فخرج الرسول وأصحابه لا يريدون إلا أبا سفيان والركب معه، لا يرونها إلا غنيمة لهم، ولا توقعوا حدوث قتال بينهم.

المكان: بئر بدر

العدد: تسعمائة وخمسون من الكفار، منهم مائة فارس وسبعمائة بعير، أما المسلمون فكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا وفرسان وسبعون بعيرًا.

الأحداث: سمع أبو سفيان بخروج الرسول، فسلك طريق الساحل وتحاشى المرور ببدر، لكنه أرسل لقريش يخبرهم أن محمد وأصحابه معترضون لهم ويطلب منهم أن يجيروا تجارتهم. فخرج جيش قريش الضخم لحماية أبي سفيان حتى لا تتكرر تجربة نخلة،

ولكن عندما نجا أبو سفيان بتجارته لم تعد لهذا الجيش مهمة وانقسم الجيش إلى فريقين، فريق يرى أن يعود الجيش إلى مكة وعدم لقاء المسلمين، وعلى رأسه أبو سفيان وأمية بن خلف، وفريق آخر يرى ضرورة مواجهة المسلمين حتى يلقنوهم درسًا، وعلى رأسهم أبي جهل. وقد كانت الغلبة للفريق المتشدد، وعلا نداء الحرب، فلم يكن أمام المسلمين بد من المواجهة، وكان ذلك اختبارًا ليقين المسلمين وثقتهم في نصر الله مهما اجتمعت عليهم حشود الباطل.

أول ما فعله الرسول أنهم سبقوا المشركين إلى الماء فاحتلوه وصفّ عليهم الرسول أصحابه وأشرف بنفسه على ضبطهم وإنزالهم منازلهم للقتال، ودعا الرسول ربه. وقد كان اللواء الأعظم للرسول يومئذ لواء المهاجرين مع مصعب بن عمير، ولواء الخزرج مع الحُباب بن المنذر، ولواء الأوس مع سعد بن معاذ.

كانت هذه المواجهة الأولى في الميدان بين جند الإيمان وجند الشرك. فأراد الرسول أن يستشير الأنصار لأنهم أعطوا مواثيقهم للرسول على التزام الحماية والنصرة داخل المدينة لا خارجها. وبدر كانت خارج المدينة، فهل سيقدم الأنصار العون الضروري فيها، أو سيجتمعون في ضوء التفسير الحرفي لبيعة العقبة الثانية؟ فأجاب سعد بن معاذ عن الأنصار جميعًا وقال: "إنا لصُبر عند الحرب، صدق عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك"، فاطمأنت

نفس رسول الله لما سمع كلام سعد، وقال لهم: "سيروا على بركة الله"، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم. وقد نشبت الحرب، وبدأ المشركون بدعوة المسلمين إلى المبارزة، فبارز حمزة عتبة بن ربيعة فقتله، وبارز علي الوليد بن عتبة فقتله، وبارز عبيدة بن الحارث شيبة بن ربيعة فجرح الإثنان، فأسرع حمزة وعلي إلى شيبة فقتلاه، واحتملوا عبيدة وهو ينزف فكان من بين شهداء بدر. أشعلت هذه البداية المظفرة حماسة المسلمين، فحمي الوطيس، ورسول الله يناشد ربه ما وعده من النصر، ويقول: "اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد في الأرض". وانجلى اليوم، وقد قتل من قريش سبعون أو يزيد، وأُسر منهم سبعون أو يزيد، أما المسلمون فقد استشهد منهم أربعة عشر.

من بين من قُتل من رؤوس الكفر يومئذ: أبو جهل، وأمية بن خلف الذي قتله بلال بن رباح لأنه كان يسوم بلال سوء العذاب ليكفر بمحمد، وعامر بن الحضرمي، وحنظلة بن أبي سفيان، وزمعة بن الأسود، واشترك معاذ بن عمرو بن الجموح ومعوذ بن عفراء وعبد الله بن مسعود في قتل أبي جهل. أما أسرى بدر فقد كان فيهم العباس بن عبد المطلب، وعقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث، وسهيل بن عمرو، وأبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله، وعقبة بن أبي معيط الذي كان يؤذي رسول الله بمكة، والنضر بن الحارث.

وقد أمر الرسول بقتل عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث، وقد كانوا من شر عباد الله وأكثرهم كفرًا وعنادًا وبغيًا وحسدًا وهجاءً للإسلام وأهله. وقد استشار رسول الله أبو بكر وعمر هل يقبل منهم الفداء أو يأمر بضرب أعناقهم، فأشار أبو بكر بقبول الفدية.

نتائج غزوة بدر

أولاً: كان لهذا الانتصار صدى هائل في الجزيرة العربية كلها.

ثانيًا: توطيد مكانة المسلمين في شبه الجزيرة العربية وانتشار الإسلام.

ثالثًا: كان ذلك لطمة قاسية لقريش زلزلت كيانها وأفقدتها الثقة في نفسها والقدرة على التوازن، وقد قُتل الكثير من رؤوس الكفر من صناديد قريش.

رابعًا: بدأ يهود المدينة يُظهرون بعض ما كانوا يخفونه تجاه المسلمين من حسد وضغينة.

غزوة أحد

شوال ٣هـ – مارس ٦٢٥م

السبب: لم يكن ما حدث من مناوشات بسيطة بين المكيين والمسلمين في أعقاب بدر مثل غزوة السويق ليشفي رغبة قريش في الثأر من الرسول وأصحابه، ومن هنا مشى بعض أعيان قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر فجاءوا أبا سفيان وتشاوروا واجتمعوا على قتال المسلمين وجمعوا ألف بعير وخمسين ألف دينار لتجهيز الجيش، وأن يستعينوا بمن يستطيعون ضمهم من الأحابيش إلى صفوفهم ومن عبد مناة وثقيف.

العدد: من الكفار ثلاثة آلاف رجل من بينهم مائتا فارس وسبعمائة دارع وثلاثة آلاف بعير ومائة رام.

من المسلمين رسول الله مع سبعمائة من المسلمين، منهم فرقة الرماة خمسون رجلًا على جبل أحد، وفرسان ومائة دارع.

المكان: بجوار جبل أحد.

الأحداث: تولى القيادة العامة لجيش المشركين أبو سفيان بن حرب، الذي خرج بإمرأته كما خرج آخرون من المشركين بنسائهم

التماسًا للغضب والحمية وتجنبًا للفرار. كان على ميمنة الجيش خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل، وعلى الخيل صفوان بن أمية، وعلى الرماة عبد الله بن أبي ربيعة، وكان يحمل لواءهم طلحة بن أبي طلحة من بني عبد الدار.

جمع الرسول أصحابه واستشارهم، فهو إما أن يخرج بأصحابه من المدينة للقاء العدو، أو أن يتحصن المسلمون داخلها، فإن حاول العدو الدخول قاتلوه فيها. وكان الخيار الثاني هو الأمثل عنده، لكن جمهور المسلمين آثروا الخروج من المدينة للقاء العدو لكي لا تفسر قريش عدم خروجهم جبنًا. فنزل الرسول على رأي أصحابه فخرج بألف من الصحابة، ثم تراجع عبد الله بن أبي السلول وعاد بثلث الناس لغضبه من استجابة الرسول لرأي الأغلبية، ومضى الرسول بمن بقي معه من أصحابه، وكانوا سبعمائة حتى نزلوا بجوار جبل أحد، فجعل الرسول ظهره وعسكره إلى أحد، وأخذ ينظم جيشه، فجعل فرقة الرماة على أحد نظرًا لأهميتهم في دفع خيل المشركين عن معسكر المسلمين لكثرة عددهم، وأصدر تعليماته الحاسمة للرماة بألا يبرحوا أماكنهم مهما تطورت المعركة، وأمر عليهم عبد الله بن جبير، وقسم الجيش إلى ميمنة وميسرة، ودفع لواءه الأعظم لمصعب بن عمير، ولواء الأوس إلى أسيد بن حضير، ولواء الخزرج إلى سعد بن عبادة.

وسارت المعركة في بدايتها في صالح المسلمين، وأبدى الرسول من صور البطولة ما يسجله التاريخ بالإجلال والإعجاب، وتوالت بطولات المسلمين. وعندما رأى خالد بن الوليد هزيمة قريش أراد أن يضعضع صفوف المسلمين، فحمل عليهم ببعض فرسان المشركين فرُمِيَت الرماة فانقمع. وأصبحت هزيمة المشركين النهائية أمام المسلمين أمرًا وشيكًا، وهنا حدث من التطورات ما قلب موازين المعركة وأحال نصر المسلمين إلى هزيمة.

معظم الرماة نسوا توجيهات الرسول لهم بعدم ترك أماكنهم، عندما رأوا الهزيمة تحل بالمشركين، ونظروا إلى رسول الله والمسلمين وهم في جوف معسكر قريش يجمعون الغنائم، فصاحوا: "الغنيمة! الغنيمة!" وتركوا مواقعهم، إلا عبد الله بن جبير ونُفير معه ما يبلغون العشرة. وانتهز خالد بن الوليد وعكرمة وغيرهم من فرسان قريش هذه الفرصة، فحملوا على رماة المسلمين فقتلوهم، واستشهد عبد الله بن جبير. وهكذا انكشف ظهر المسلمين أمام العدو، فقد ضيعت الثغور التي كان بها الرماة، ومن ثم دخل المشركون بخيولهم على المسلمين فقتلوا فيهم قتلاً ذريعًا، وتفرق المسلمون في كل وجه، وقُتل حامل الراية مصعب بن عمير، فظن المشركون أنه رسول الله، وسرت إشاعة قتل رسول الله بين صفوف المسلمين، فزلزلوا زلزالًا شديدًا، وولي كثير منهم الأدبار. ثم علم المسلمون أن الرسول لم يُقتل، فاطمأنت نفوسهم، وثاب إليه

الكثيرون منهم وأحاطوا به وكونوا من أجسادهم ترسًا يصد عنه هجمة قريش، ومنهم أبو دجانة وعلي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله وأبو بكر وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح والزبير بن العوام. ويُروي أنه ثبت حول الرسول يومئذ ثلاثون رجلًا، كلهم يقولون: "وجهي دون وجهك ونفسي دون نفسك وعليك السلام غير مودع".

ورغم إحاطة الصحابة بالرسول أثناء المعركة، فقد استطاع بعض المشركين أن يلحقوا به بعض الأذى، فشُجَّ في وجهه وكُسرت إحدى أسنانه وجُرحت شفته، وقامت النساء المسلمات يسقين العطشى ويداوين الجرحى، بل إن بعضهن اشتركن فعليًا في القتال، ومنهن أم عمارة التي كانت تذب عن رسول الله بالسيف وترمي بالقوس، وقال الرسول عن جهادها يوم أحد: "لم ألتفت يمينًا ولا شمالًا إلا وأنا أراها تقاتل دوني"، وقال أيضًا: "لمقام نسيبة بنت كعب (أم عمارة) خير من مقام فلان وفلان".

انجلت المعركة، وقد استشهد من المسلمين سبعون، وكان من بينهم حمزة عم الرسول، لكنه لم يُقتل إلا بعد أن أمعن في الكفار وأبلى البلاء الحسن، وكان استشهاده على يد وحشي، وقد مثلت هند بنت عتبة، امرأة أبي سفيان، بحمزة الذي قتل أباها عتبة بن ربيعة في بدر، وشارك في قتل عمها شيبة. وقد اشتد على رسول الله قتل حمزة، فقال عندما وقف عليه صريعًا: "لن أصاب بمثلك أبدًا، ما

وقفت موقفًا قط أغيظ إلي من هذا". ولا شك أن المسلمين استفادوا من درس أحد، وأدركوا تمامًا أن عدم الالتزام بأوامر القائد يوردهم موارد الهلاك، ثم فهموا قيمة الاستبسال دفاعًا عن العقيدة، فقد استبسلوا في بدر رغم قلتهم فكلل الله جهادهم بالنصر، لكنهم تخاذلوا في أحد فانتهوا إلى الهزيمة، فقال الرسول عندما علم أن أصحابه استوعبوا الدرس: "لن ينالوا منها مثلها حتى تستلموا الركن"، أي أن قريشًا لن تلحق بالمسلمين هزيمة بعدها حتى يفتحوا مكة.

النتائج: لم يكن انتصار قريش في المعركة انتصارًا حاسمًا على الإطلاق، لأن الانتصار يُقاس بمدى تحقق أهداف المعركة. وقد كان الهدف الرئيسي لقريش هو تحطيم الجماعة الإسلامية الناشئة أو القضاء على محمد، لكن قريش لم تحقق أيًّا من هذين الهدفين، كما أنها لم تجرؤ على مطاردة المسلمين وهم عائدون إلى المدينة، فقد كانوا يدركون أن المسلمين قوة يُحسب حسابها.

انصرف أبو سفيان وهو يقول: "إن موعدكم بدر للعام المقبل"، فأمر رسول الله عمر أن يجيبه: "نعم، هي بيننا وبينكم موعد"، وقد نزل في هذه المعركة من الذكر الحكيم من سورة (آل عمران) ما يثبت عزم المسلمين ويقوي إيمانهم ويقينهم، ويحذرهم مما لا يليق بهم من الفرار أمام أعداء الله.

في أعقاب أحد: أراد الرسول أن يؤكد لقريش أن ما أصاب المسلمين في أحد لم يضعف من قوتهم وعزيمتهم، فخرج يطلب العدو في اليوم التالي لمعركة أحد، وقد طلب الرسول ألا يخرج إلا من شهد القتال أمس، فأجابه المسلمون وخرجوا معه وقد فُشت فيهم الجراحات. وقد تقدم الرسول بأصحابه وهم على هذه الحال حتى وصلوا إلى مكان يُقال له (حمراء الأسد)، وكان لواء الرسول مع علي بن أبي طالب، وأمر الرسول أصحابه بأن يوقدوا النيران، فكانت ترى من المكان البعيد. فذهب ذكر معسكرهم ونيرانهم في كل وجه، حتى كبت الله تعالى بها عدوهم، ولم تجرؤ قريش على مواجهة المسلمين في (حمراء الأسد) رغم علمها بخروجهم. فأقام الرسول والمسلمون بها ثلاثة أيام، ثم رجعوا إلى المدينة، ولم ينس الرسول ما قاله أبو سفيان للمسلمين في نهاية معركة أحد، ولم ينس أيضًا قبوله بهذا التحدي.

فخرج الرسول من المدينة ووصل بدرًا في مطلع ذي القعدة من العام الرابع للهجرة، وكان على رأس ألف وخمسمائة من أصحابه، وكان يحمل لواءه علي بن أبي طالب. وخرج أبو سفيان على رأس ألفين من أهل مكة، فلما كان ببعض الطريق أجفل عن المواجهة، وبدأ له الرجوع، فقال لمن معه: "ارجعوا، لا يصلحنا إلا عام خصب غيداق، نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن، وإن عامكم هذا عام جدب، وإني راجع فارجعوا"، فرجع، ورجع الناس فسماهم أهل مكة (جيش

السويق). ولهذا يُطلق على هذه الغزوة "غزوة السويق"، وهي غير الغزوة التي كانت تحمل نفس الاسم التي كانت في السنة الثانية للهجرة، وتسمى أيضًا "غزوة بدر الأخرى" أو "بدر الموعد". وقد أقام الرسول ببدر ثمانية أيام، ثم رجع إلى المدينة بعد أن أكد هيبة المسلمين أمام قريش والعرب جميعًا.

الأحزاب (غزوة الخندق)

ذو القعدة ٥هـ – مارس ٦٢٧م

السبب: كان عجز قريش عن مواجهة المسلمين في بدر الموعد مصدر شعور قوي لديها بالإحباط والرغبة في الانتقام من الرسول وصحبه. ومن هنا أخذ مشركو قريش يعدون العدة لتوجيه ضربة قاضية ضد الدولة الإسلامية بالمدينة، فاستنجدوا بمن حولهم من العرب وجمعوا أموالًا عظيمة لذلك. وقد التقت رغبة قريش مع اليهود بالإطاحة بدولة المدينة، ومن هنا بدأ اليهود في الكشف عن حقدهم على المسلمين. وقد اضطر الرسول إلى إجلاء يهود بني قينقاع وبني النضير عن المدينة في العام الثاني والرابع للهجرة على التوالي، فكان ذلك مما أثار اليهود وألهب روح الانتقام في نفوسهم. وقد نجحت قريش وزعماء بني النضير في إغراء غطفان بالانضمام إليهم، وقد جعل اليهود لغطفان تمر خيبر سنةً على أن يعينوهم على حرب رسول الله، كما انضمت قبيلتا بني سُليم وبني أسد إلى هذا التحالف، وهكذا تكون جيش هائل للأحزاب وصل عدده إلى عشرات الآلاف. فالواضح من هذا التحالف هو تسديد ضربة قوية قاضية لدولة الإسلام في المدينة. وقد توجه بعض رجال خزاعة إلى النبي بالمدينة ليخبروه بخروج قريش لحربه، فأعد جيشًا وتقدم ليتصدى لجيش الأحزاب.

العدد:

المشركون: عشرات الآلاف، من بينهم أربعة آلاف ينتمون إلى قريش وأحابيشها، وللقريش وحدها ثلاثمائة فرس وألف وخمسمائة بعير، ولغطفان ثلاثمائة فرس.

المسلمون: ثلاثة آلاف مقاتل.

المكان: الثبوت في المدينة وحفر خندق حولها.

الأحداث: أشار سلمان الفارسي بحفر الخندق حول المدينة، ونُفذ اقتراح سلمان الذي لقي استحسانًا من المسلمين، وقد تكاتف المسلمون في حفر الخندق وعمل معهم رسول الله كواحد منهم، وكان ينقل التراب حتى اغبر بطنه. وأكمل المسلمون حفر الخندق بعد ستة أيام من العمل الشاق، وكان حفره شمالي المدينة، وهي الجهة المكشوفة التي كان يمكن أن يقتحم الأعداء المدينة من خلالها، أما بقية جهات المدينة فكانت ممنوعة ببيوتها ونخيلها، ومن الصعب على العدو أن يهاجمها، وعندما وصلوا وفوجئوا بالخندق يحول بينهم وبينها قالوا: "والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها".

زين حُيي بن أخطب، سيد قبيلة بني النضير اليهودية، يهود بني قريظة وزعيمهم كعب بن أسد، أن ينقضوا عهدهم مع رسول الله، وكان الرسول أجلى يهود بني النضير وبني قينقاع قبل ذلك عن المدينة لنقضهم العهد معه. وهكذا تواطأ يهود بني قريظة مع الأحزاب، وعندما علم الرسول أرسل إليهم بعض الصحابة ليتثبتوا من حقيقة الأمر، فلما ذهبوا لهم وذكروهم بالعهد الذي بينهم وبين الرسول قالوا: "لا عقد بيننا وبين محمد ولا عهد"، ورجعوا إلى الرسول وأخبروه بذلك. وهكذا أحاط الأعداء بالمسلمين من كل جانب، فعظم البلاء واشتد الخوف وظهر النفاق في بعض ضعاف الإيمان.

عجز الأحزاب عن اقتحامه ففرضوا حصارًا على المدينة دام خمسة عشر يومًا، ولم يكن بين الفريقين حرب إلا التراشق بالنبل والحجارة، لكن بعض فرسان قريش نجحوا في اقتحام الخندق من مكان ضيق، وقد تصدى لهم المسلمون. وعندما طال الحصار على المسلمين أراد الرسول أن يصالح غطفان على ثلث ثمار المدينة على أن يرفعوا الحصار وينصرفوا عن الأحزاب، فإذا انصرفت غطفان تفرقت كلمة الأحزاب واستطاع المسلمون هزيمة الباقيين عند المواجهة. وعندما استشار الرسول سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، كان ردهم عن الأنصار بصفة عامة: "أن ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم"، فاستجاب لهم الرسول وعدل

عن اتجاهه للصلح مع غطفان، وهكذا التف المسلمون حول رسول الله ينتظرون.

وقد تهيأت للمسلمين بعض الأسباب التي عجلت بانتهاء الحصار وعودة الأحزاب خائبين. فقد أسلم أحد رجال غطفان فذهب إلى الرسول وقال له إنه أسلم ولم يعلم قومه بذلك، فقال له الرسول: "إنما أنت فينا رجل واحد، فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة"، فذهب إلى بني قريظة وهم لا يعلمون بإسلامه، فخوفهم نتائج تحالفهم مع قريش وغطفان وأخبرهم باحتمال أن تنسحب قريش وغطفان من الميدان لو وجدوا أن ذلك أسلم لهم، وهنا يخلو الميدان أمام المسلمين لينتقموا من بني قريظة الذين لا دار لهم إلا المدينة، ولذلك حث بني قريظة أن يطلبوا من قريش وغطفان رهائن حتى يضمنوا أن القوم لن يتخلوا عنهم في الحرب ضد محمد. ثم ذهب أيضًا إلى قريش وأخبرهم عن مبلغ وده لهم وكراهيته للمسلمين وذكر لهم أن يهود بني قريظة ندموا على تحالفهم مع قريش وغطفان وأنهم اتصلوا بمحمد يعرضون عليه أن يسلموه بعض أشراف هاتين القبيلتين ليضرب أعناقهم ثم يكونوا معه على من بقي من عدوه، وحذرهم من استجابتهم لبني قريظة إذا طلبوا منهم رهائن. ثم ذهب إلى غطفان وقال لهم ما قاله لقريش، ثم بدأت الخدعة تؤتي ثمارها. فقد أرسلت قريش وغطفان إلى بني قريظة وفدًا من القبيلتين للاتفاق على وضع خطة مشتركة للهجوم

على المسلمين، فطلبت بني قريظة رهائن ليثقوا في جدية القوم وأنهم لن يتركوهم وحدهم في الميدان، فعلمت غطفان وقريش بصدق ما وصلهم عن خطة بني قريظة فرفضوا ذلك. فأصر بني قريظة على موقفهم من عدم القتال إلا بعد أن يتسلموا الرهائن، ورفض الآخرون ذلك، وهكذا تخاذل الفريقان بفضل خدعة (نعيم بن مسعود)، فقد أزال خطرًا محققًا وهو هجوم بني قريظة من داخل المدينة على صفوف المسلمين، ولهذا كان نعيم يقول: "أنا خذلت بين الأحزاب حتى تفرقوا في كل وجه، وأنا أمين رسول الله على سره".

هناك عامل آخر عجل برفع الحصار، فقد تعرض هؤلاء لريح عاتية في ليلة شاتية قاسية البرودة، فكفأت قدورهم، وطرحت أنبيتهم، وأثارت الذعر والفوضى في معسكرهم، فلم يجدوا أمامهم إلا أن يشدوا رحالهم ويرتدوا على أعقابهم دون أن يجنوا من تحزبهم إلا الندم والحسرة، ومن هنا يتبين أن المسلمين لم يضطروا لخوض حرب حقيقية خلال تلك الغزوة، ومع هذا صمدوا في مواجهة الحصار، واستشهد منهم ستة خلال بعض المناوشات المحدودة، كما أصيب الصحابي الجليل سعد بن معاذ، سيد الأوس، بسهم في ذراعه ثم مات بعد ذلك متأثرًا بإصابته.

سبب التسمية: - سميت بالأحزاب لتحالف قريش مع اليهود وغطفان، وسميت بالخندق أيضًا إشارة إلى الخندق الذي حفره المسلمون بمشورة سلمان الفارسي.

مثلت غزوة الخندق آخر مدى وصلت إليه محاولات المكيين للقضاء على دولة الإسلام في المدينة، وقد تصورت قريش أنها ستكون الضربة التي لن تقوم للإسلام بعدها قائمة، لكنها انتهت إلى خيبة أمل بالنسبة للمكيين، والأحزاب لم تكن تخطر لهم على بال، ولهذا قال الرسول في نهاية الغزوة: "الآن نغزوهم ولا يغزوننا"، فكان كذلك حتى فتح الله مكة، ومن هنا بدأ الكثيرون من المشركين في مراجعة حساباتهم ويفكرون جديًا في اعتناق الإسلام.

من الخندق إلى صلح الحديبية

كان الرسول حريصًا على تأكيد هيبة المسلمين أمام القبائل العربية المحيطة حتى لا يتكرر ما حدث في غزوة الخندق بانضمام تلك القبائل إلى قريش، ومن بينهم قبيلة "بني لحْيان" لغدرها بالمسلمين قبل ذلك، ففي صفر سنة أربعة هجرية أرسل إليهم الرسول سبعة من المسلمين بناءً على طلبهم ليفقهوهم في الدين، فلما وصلوا إلى ماء لهذيل بالحجاز يُسمى "الرجيع"، كشف بنو لحْيان عما بيتوه من غدر، فأرادوا أن يأسرواهم ليبيعوهم لقريش حتى يقتلوهم ثأرًا لهم، فلما عرف المسلمون بالخطة قاتل أربعة منهم قتال المستميت حتى استشهدوا، واستُأسر ثلاثة، وقد سار بهم بنو لحْيان إلى مكة، وفي الطريق قاتلهم واحد من الثلاثة حتى استشهد، وأما الإثنان فباعوهما لقريش فقتلتهما شر قتلة.

وفي عام ٦هـ خرج الرسول إلى بني لحْيان في مائتي رجل من أصحابه ليغزوهم ويثأر لأصحاب الرجيع، وتعرف هذه الغزوة بغزوة بني لحْيان. فتملك بني لحْيان الرعب فهربوا وتمنعوا في رؤوس الجبال. فأقام الرسول بأرضهم يومين ثم ارتحل مع أصحابه حتى نزل عُسفان بالقرب من مكة، وقال في ذلك: "إن هذا يبلغ قريشًا فيذعرهم ويخافون أن نكون نريدهم"، ثم رجع إلى المدينة بعد أسبوعين.

ومن بين القبائل التي اضطر الرسول لمواجهتها بعد الخندق وقبل الحديبية بني المصطلق من خزاعة، فقد بلغ الرسول أن بني المصطلق يجتمعون له وتهيأون لحربه بقيادة قائدهم، فخرج الرسول إليهم في شعبان ٦هـ وكان الجيش يضم ثلاثين فارسًا، ولقي الرسول عدوه عند ماء من مياه بني المصطلق، فاقتتل الناس اقتتالًا شديدًا، وانتهت بهزيمة بني المصطلق، وأفاء الله على المسلمين أموالهم وأبناءهم ونساءهم، وكان من بين السبي الكثير في تلك الغزوة جُويرية بنت الحارث، سيد بني المصطلق، وهي التي تزوجها رسول الله، وتعرف هذه الغزوة بغزوة بني المصطلق، وقد ارتبط بها "حديث الإفك" الذي دار حول الافتراء على السيدة عائشة واتهامها بالفاحشة ثم برأها الله في آيات بينات من سورة النور. إن الفترة التي تلت غزوة الخندق كانت بالنسبة للمسلمين بداية حقيقية لتأكيد وجودهم وفرض هيبتهم على كل المحيطين بهم في أنحاء شبه الجزيرة العربية، فلا غزو إذن أن يفكر الرسول، وقد زاد الله الإسلام منعة في أن يتوجه إلى البيت الحرام زائرًا ومعتمرًا، ولماذا تقف قريش حالًا بين المسلمين وبين هذا الحق وقد أصبح المسلمون قوة يحتسب حسابها؟ وقد كان تفكير الرسول في زيارة البيت الحرام هو الخطوة الأولى لعقد صلح الحديبية.

صلح الحديبية

ذو القعدة ٦هـ – مارس ٦٢٨م

بعد غزوة بني المصطلق بشهرين خرج الرسول في مستهل ذي القعدة ٦ هـ نحو مكة معتمرًا لا يريد حربًا، وكان قد رأى في المنام أنه دخل البيت وحلق رأسه وأخذ مفتاح البيت وعرف مع المعرفين (أي وقف على عرفه مع الواقفين). وقد ساق الرسول معه الهدي وأحرَم بالعمرة لتأمن قريش من حربه، ولتعلم أنه إنما خرج زائرًا للبيت الحرام ومعظمًا له وأحرَم كذلك عامة المسلمين، وركب النبي ناقته "القصواء" وسار معه إلى مكة ألف وخمسمائة من أصحابه تقريبًا.

عندما سمعت قريش بمسير الرسول، خرجت بالعُدة والعدد لتصد المسلمين عن البيت الحرام. واستمر الرسول بالمسير حتى انتهى إلى مكان يقال له (الحديبية)، فنزل به هو والمسلمون. فجاء إلى الرسول "بُديل بن ورقاء الخزاعي" وذكر له أن قريش خرجوا في الجيش الكثيف وهم يقسمون بالله لا يُخلون بينك وبين البيت حتى تبيد خضراؤهم، فأكد له الرسول أن المسلمون ما جاءوا لقتال إنما جاءوا لزيارة البيت، فمن صدهم عن البيت قاتلوه، وأبدى استعداده أن يعقد هدنة مع قريش يأمنون خلالها ويتركون الرسول يتفرغ لدعوة

الناس إلى الإسلام دون أن يحولوا بينه وبين ذلك، وقد ذهب بديل بهذه الرسالة إلى قريش فلم تجد استجابة منهم، لكن عروة بن مسعود شجع قريشًا على قبولها، فبعثت قريش عروة إلى الرسول حتى يكون لهم عينًا ويأتيهم بخبره. فلما جاء إلى الرسول حاول أن يوهَن من عزم المسلمين ويصرف الرسول عن الذهاب إلى مكة مدعيًا أن أصحاب الرسول سوف يفرون عنه ويخذلونه، لكن أبا بكر شتم عروة وصاح في وجهه: "أأنحن نفر وندعه؟"، فلاحظ عروة مدى توقير المسلمين لرسول الله وامتثالهم لأمره، فرجع إلى قريش وقال لهم: "أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك ووفدت كسري وقيصر والنجاشي، والله ما رأيت ملكًا قط يُعظمه أصحابه ما يُعظم أصحاب محمد محمدًا، وأنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها"، لكن قريش رفضت الإذعان لرأي عروة.

أراد الرسول أن يقوم من جانبه بخطوة إيجابية في سير المفاوضات فأرسل رجلًا مقبولًا لديهم وهو عثمان بن عفان، وكانت سفارة عثمان تدور حول نقطة أساسية وهي إقناع قريش بأن الرسول "لم يأت لحرب إنما جاء زائرًا لهذا البيت معظمًا لحرمته". لم ترضِ قريش، وكان كل ما عرضته عليه أن يطوف هو بالبيت إن أراد، فقال عثمان: "ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله". فاحتبسته قريش، وأشيع بين المسلمين أنها قد قتله، فلما بلغ ذلك رسول الله

قال: "لا نبرح حتى نناجز القوم"، ودعا المسلمين إلى بيعته على الثبات وعدم الفرار في وجه قريش، وقيل بل كانت بيعة على الموت.

وقد بايعه المسلمون تحت شجرة يقال لها "سَمُرة"، فهي بيعة الرضوان التي نزل فيها الذكر الحكيم: "لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة، فعلم ما في قلوبهم، فأنزل الله السكينة عليهم وأثابهم فتحًا قريبًا". وبعد هذه البيعة رجع عثمان إلى المسلمين، وهكذا اتضح أن ما أشيع من قتله باطل. ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو وقالوا له: "ائت محمدًا فصالحه، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عن عامه هذا، فوالله لا تحدث العرب أنه دخل علينا عنوة أبدًا". وتكلم سهيل مع الرسول وتراجعا، ثم جرى بينهم الصلح.

وتمثلت بنوده فيما يأتي:

. أن تتوقف الحرب بين المسلمين وقريش عشر سنين.

. من أحب أن يدخل في عهد محمد وعقده فعل، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش وعقدها فعل.

. من جاء إلى محمد من قريش بغير إذن وليه رده إليه، ومن جاء إلى قريش من أصحاب محمد لم ترده.

يرجع المسلمون عن مكة عامهم هذا ويدخلونها في العام القادم على أن يقيموا بها ثلاثة أيام بعد أن تخرج قريش منها، وعلى ألا يحمل المسلمون من السلاح إلا السيوف في القرب.

لقد كان هذا الصلح بالشكل الذي تم به وبالبنود التي تضمنها سببًا في نقاش حاد بين المسلمين واعتراض من بعضهم، فجعل رسول الله يخفضهم ويومئ بيده إليهم: اسكتوا. فذهب عمر بن الخطاب إلى الرسول معترضًا وقال له: "يا رسول الله ألسنا بالمسلمين؟" قال: بلى. قال: "فعلام نعطي الدنية في ديننا؟" فقال: "أنا عبد الله ورسوله ولن أخالف أمره ولن يُضيعني"، وقد أكثر عمر مراجعة الرسول في ذلك الأمر حتى قال أبو عبيدة بن الجراح: "ألا تسمع يا ابن الخطاب رسول الله يقول ما يقول؟ تعوذ بالله من الشيطان واتهم رأيك"، فقد كان رسول الله على يقين تام بما اشتمل عليه هذا الصلح من عناصر إيجابية في صالح المسلمين والدعوة. فأول عنصر تمثل في فترة الهدنة التي أمن فيها الناس وكف بعضهم عن بعض، فنشطت دعوة الإسلام وضمت إلى صفوفها أعدادًا ما كانت لتظفر بها في محيط الحرب، واعترف بذلك عمر بن الخطاب فقال: "لما

وقع صلح الحديبية أسلم في الهدنة أكثر ممن كان أسلم من يوم دعا رسول الله إلى يوم الحديبية، وما كان في الإسلام أعظم من فتح الحديبية". والدليل على ذلك أن الرسول خرج في الحديبية في حدود ألف وخمسمائة من الصحابة، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بأقل من سنتين في عشرة آلاف، ولهذا وصف القرآن صلح الحديبية بأنه فتح مبين.

ومن مميزات صلح الحديبية أن قريشًا اعترفت لأول مرة بالرسول على أنه ندها من خلال المفاوضات التي أجرتها معه، ولم تكن تنظر إليه إلا على أنه ثائر على الشرعية، واعترفت قريش بأن الإسلام دين له كيانه وتأثيره، وأن للمسلمين حق زيارة الكعبة وإقامة الشعائر، وأن مكة والمدينة أصبحتا متساويتين. بعد ذلك تبين للجميع عدم رد قريش إلى رسول الله من جاءها من المسلمين مرتدًّا، وهذا خير شاهد على اعتقاد الرسول بما يتمتع به الإسلام من جاذبية فائقة، لأن عدد من كان يمكن أن يرتد لم يكن يمثل إلا نسبة ضئيلة جدًا يمكن إسقاطها من الحساب. من كل ذلك يتبين أن صلح الحديبية كان نقطة تحول فاصلة في تاريخ الدعوة الإسلامية، وقد بدأت بعده دولة المدينة تأخذ طابعًا جديدًا.

تطور العلاقة بين المسلمين ويهود المدينة منذ الهجرة حتى صلح الحديبية (١: ٦هـ)

عند قدوم الرسول إلى المدينة كتب صحيفة نظم فيها العلاقات بين المسلمين وغيرهم من مجتمع المدينة، وكفلت هذه الصحيفة لليهود حرية الدين والعبادة، وأمنتهم على أنفسهم وأموالهم، وأعطتهم حق المواطنة الكاملة في الدولة الإسلامية. وقد أراد الرسول بذلك أن يرسي علاقات من الثقة بينه وبين جيرانه من أهل الكتاب، وهم يهود بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة. لكن بعد وقت قصير من إنشاء دولة الإسلام بدأ اليهود يكشفون عن حقدهم وتآمرهم على المسلمين، فعاملهم الرسول بما يستحقونه في كل موقف. فظهر منهم التنديد بالإسلام عندما حول الله القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة في السنة الثانية من الهجرة، وأيضًا عندما انتصر المسلمون في بدر لم يكتم اليهود حقدهم، وخاصة يهود بني قينقاع الذين كانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله وحاربوا فيما بدر وبين أحد. أيضًا كانت امرأة مسلمة عند صائغ يهودي في حُلي لها في سوق بني قينقاع، فجاء رجل يهودي فجلس خلفها وهي لا تشعر، ثم عقد طرف ثوبها إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوأتها، فضحكوا منها، فوثب رجل مسلم على اليهودي فقتله، فشدت بنو قينقاع على المسلم فقتلوه، ونبذوا العهد الذي كان

بينهم وبين رسول الله وتحصنوا في حصونهم واستعدوا للقتال، فسار الرسول إليهم وحاصر بني قينقاع خمس عشرة ليلة في السنة الثانية للهجرة، ثم نزلوا على حكمه، فأمر بإجلائهم عن المدينة فتوجهوا إلى أذرعات بالشام، وغنم المسلمون ما كان لهم من مال وسلاح، ولم تكن لهم أرض يملكونها، فقد كانوا صاغة.

في السنة الرابعة للهجرة أرسل الرسول سبعين رجلًا من المسلمين إلى أهل نجد لدعوتهم إلى الإسلام، وكان ذلك بناءً على اقتراح من سيد قبيلة بني عامر، وهو أبو براء عامر بن مالك، وقد تعهد عامر هذا أن يجير المسلمين، لكن رجلًا من عتاة المشركين في تلك المنطقة، وهو عامر بن الطفيل، لم يبال بهذا الجوار الذي تعهد به عامر بن مالك. فقتل الرسول الذي أرسله إليه هؤلاء المسلمون الدعاة، وكان معهم كتاب رسول الله يدعوه إلى الإسلام.

وحاول أيضًا أن يحرض قبيلته بني عامر على الفتك بالدعاة المسلمين، فرفض بنو عامر، فحرض عليهم بعض قبائل بني سُليم، فاستجابوا له ووثبوا عليهم فقاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم إلا واحدًا نجا وبه رمق، وقد قُتل هؤلاء في مكان يقال له بئر معونة، وقد اتفق أن وجد اثنان من المسلمين بالقرب من هذه المجزرة، وهما عمرو بن أمية والمنذر بن محمد. أما المنذر بن محمد فقد قاتل القوم حتى قتل، وأما عمرو بن أمية فقد أسره عامر بن الطفيل، ثم أطلق سراحه عندما علم أنه من مضر. وفي طريق عمرو بن أمية

إلى المدينة ليخبر رسول الله بما حدث، لقي رجلين من بني عامر كان معهما عقد وجوار من الرسول لم يعلم به عمرو، فغدا عليهما عمرو فقتلهما، وهو يظن أنه أدرك بقتلهما ثأرًا لأصحابه، وعندما قدم إلى الرسول وأخبره قال له: "لقد قتلت قتيلين لأدينهما أي لأدفعن ديتهما"، ثم لم يلبث عامر بن الطفيل أن أرسل إلى الرسول يطلب منه الدية على رغم ما فعله بالمسلمين في بئر معونة، فلم يكن من خُلق الرسول ولا المسلمين الغدر ونقض العهود، ولهذا تكفل الرسول بدفع دية القتيلين. وقد لجأ الرسول إلى يهود بني النضير يطلب منهم العون في الدية، وذلك بحكم ما تم بين المسلمين ويهود المدينة من اتفاق قام على أساس التعاون والتضامن. ورغم أن يهود بني النضير وعدوا الرسول بأن يعينوه، فإنهم تآمروا عليه ليقتلوه، وهو لم يبرح بعد ديارهم.

فلما ذهب الرسول إليهم يستعينهم في الدية قالوا له: "نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه"، ثم خلا بعضهم إلى بعض فقالوا: "إنكم لن تجدوا هذا الرجل على مثل حاله هذه". ورسول الله إلى جنب جدار من بيتهم قاعد. فقالوا: "من رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيقتله بها فيريحنا منه؟" فقال عمرو بن جحاش: "أنا لذلك"، وقد أدرك الرسول ما يجري حوله، وذلك من خلال تصرفات مريبة ليهود بني النضير أثناء لقائهم بهم. لذلك انسحب من ديارهم، ثم أرسل إلى محمد بن

مسلمة من الأوس فقال له: "اذهب إلى يهود بني النضير فقل لهم: اخرجوا من بلادي فلا تساكنوني وقد هممتم بما هممتم من الغدر"، لكنهم رفضوا وأبوا إلا الحرب بتشجيع من عبد الله بن أُبي بن سلول، وقد قاد بني النضير في تحديهم للرسول زعيمهم حُيَيّ بن أخطب، وهنا لم يجد الرسول بدًّا من المسير إليهم. فحاصرهم خمسة عشر يومًا حتى صالحوه على أن يُجليهم من المدينة محمد بن مسلمة، فمنهم من سار إلى خيبر، ومنهم من سار إلى أذرعات بالشام، ونزلت سورة الحشر بأكملها، وهي السورة التي يروي أن ابن عباس كان يسميها سورة بني النضير.

أما بنو قريظة ففي غزوة الخندق نقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله بانضمامهم إلى الأحزاب من قريش ويهود بني النضير وغضفان في حربهم للمسلمين بالمدينة، وأصبح موقف المسلمين وهم محاصرون في غاية الحرج، وجاء هذا الغدر في لحظة فاصلة بالنسبة للمسلمين. وبعد انسحاب الأحزاب كان على الرسول والمسلمين أن يتعاملوا مع هذا العدو الداخلي بما يستحق، ولهذا لم يكد ينصرف الأحزاب عن المدينة حتى أذن مؤذن رسول الله في الناس: "من كان سامعًا مطيعًا فلا يصلينَّ العصر إلا ببني قريظة"، فسار المسلمون من فورهم إلى حصون بني قريظة في المدينة، وذلك في آخر ذي القعدة في السنة الخامسة من الهجرة، وحاصروهم خمسة عشر يومًا حتى جهدهم الحصار، وقذف الله في

قلوبهم الرعب، وهنا بدأوا يتشاورون فيما بينهم، وقد عرض عليهم زعيمهم كعب بن أسد ثلاثة اختيارات: أن يعتنقوا الإسلام، أو أن يقتلوا نساءهم وأبناءهم ثم يجاهدوا المسلمين دون مبالاة بالموت، أو أن يباغتوا المسلمين بالهجوم ليلة السبت، حيث لا يتصور أحد أن يحدث ذلك لأن السبت عند اليهود يوم راحة وعبادة لا يوم عمل وقتال، وقد رفض اليهود كل هذه الاختيارات. وبعد محاولة الاتصال برسول الله والتفاوض معه، رضي بنو قريظة بأن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ من الأوس، وكان بنو قريظة حلفاء الأوس، ولهذا طمعوا في أن يرفق بهم سعد، وكلم بعض رجال الأوس سعدًا في ذلك، فكان جوابه: "قد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم"، وكان سعدًا قد أصيب في غزوة الخندق وجيئ به محمولًا إلى رسول الله ليحكم في بني قريظة، وقد نظر سعد إلى بشاعة الجرم الذي ارتكبه بنو قريظة، واستنتج أن العفو عن أمثال هؤلاء يجعل المسلمين لا يأمنون تجدد غدرهم بصورة أبشع وأقسى، ولهذا حكم بأن تُقتل رجالهم وتقسم أموالهم وتُسبي ذراريهم ونساؤهم.

فقال رسول الله: "أصبت حكم الله فيهم". وهكذا شهدت المرحلة الأولى من حياة الرسول بالمدينة (١-٦هـ) نهاية التجمع اليهودي هناك بكل ما ارتبط به من مؤامرات ودسائس، ولم يكن ذلك إلا لأن اليهود لم يحترموا عهودهم مع المسلمين، ولم يقيموا اعتبارًا لما يتطلبه الجوار المشترك معهم من علاقات تعاون ومودة وتآلف.

من صلح الحديبية حتى عام الوفود (٦-٩هـ)

شهدت هذه الفترة اتساعًا في نطاق الدعوة وتأكيدا لهيبة الدولة، سواء أكان ذلك داخل شبه الجزيرة العربية أم خارجها.

كتب رسول الله إلى الملوك

أرسل الرسول كتبه إلى ملوك العالم وأمرائه يدعوهم فيها إلى الإسلام بعد صلح الحديبية وحتى مماته. اختار الرسول عددًا من صحابته لحمل كتبه إلى الملوك والأمراء، فأرسل دحية بن خليفة الكلبي بكتابه إلى إمبراطور الروم، وحاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس حاكم مصر، وعبد الرحمن بن حذافة إلى إمبراطور الفرس، وعمرو بن أمية إلى النجاشي ملك الحبشة، وشجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمر الغساني، وسليط بن عمرو العامري إلى هوذه بن علي الحنفي صاحب اليمامة، وكان ذلك في العام السابع للهجرة على أرجح الأقوال. وفي العام الثامن للهجرة أرسل عمرو بن العاص إلى جيفر وعباد ابني جلندي صاحب عُمان، وأرسل العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوي صاحب البحرين. ومن نصوص هذه الكتب هذا النص في كتابه إلى إمبراطور الفرس:

بسم الله الرحمن الرحيم

"من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله إلى الناس كافة لينذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين، فأسلم تسلم، فإن توليت فإن عليك أثام المجوس."

يقدم لنا هذا الكتاب مثالًا لجوهر ما تضمنته كتب الرسول الأخرى إلى الملوك والأمراء، فهي تدور حول دعوة هؤلاء بالحسنى إلى اعتناق الإسلام، ولا نجد ما يدعونا إلى الدهشة لأن الرسول مكلف بإبلاغ رسالته إلى البشر جميعًا بالحكمة والموعظة الحسنة.

فتح خيبر (صفر ٧هـ) وإخضاع يهود شبه الجزيرة

كانت خيبر شمال المدينة من أهم المراكز اليهودية في شبه الجزيرة العربية، وقد انضم إلى يهود خيبر الأصليين بعض يهود المدينة الذين أجلاهم الرسول، فأصبحت خيبر مركزًا للتآمر اليهودي ضد المسلمين، ومن هنا أراد الرسول أن يقضي على شوكة اليهود في هذا المعقل الحصين حتى يؤمن دولة الإسلام. وقد تميزت خيبر بحصونها المنيعة وبما تشتمل عليه هذه الحصون من العدد والعدة، ولهذا خرج في صفر من العام السابع الهجري على رأس ألف وأربعمائة من أصحابه، من بينهم مائتا فارس، متجهًا نحو خيبر، وكان اليهود عشرة آلاف مقاتل، وقد استعانت اليهود بحلفائهم من العرب من أسد وغفار وغيرهما، وجعلوا لهم تمر خيبر سنة. رغم كل هذه القوة، إلا أن حصونها أخذت تتساقط أمام استبسال المسلمين وإصرارهم على فتحها. بعد أن حصل المسلمون على ثلاث حصون أساسية يضم كل حصن منهم عددًا من الحصون الداخلية المنيعة، كان اليهود بقيادة كنانة بن الربيع قد تحصنوا في أمنع حصون الكتيبة، وهو حصن "القموص"، فما هو إلا أن قيل: هذا رسول الله قد أقبل من الشق في أصحابه، فتهيأ أهل القموص وقاموا على باب الحصن بالنبل، فنهض كنانة إلى قوسه فما قدر أن يُوترها من الرعدة وأومأ إلى أهل الحصون: لا ترموا! وانقمع في حصنه، فما رُئي منهم

أحد، حتى أجهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب، وهكذا استسلم حصن القموص. ثم كان آخر ما استولى عليه المسلمون من حصون خيبر هما حصن الوطيح والسُّلالم، وقد ضرب عليهم الرسول حصار دام أربعة عشر يومًا، ثم طلب أهل الحصنين الصلح فأجابهم الرسول إليه.

عامل الرسول أهل خيبر بعد استسلامهم معاملة تتسم باللين والتسامح، فقد حقن لهم دماءهم، وأقرهم على أرضهم يزرعونها على أن يكون لهم نصف ما تنتجه، وللمسلمين النصف الآخر. وقد كانت لليهود مراكز أخرى بالقرب من خيبر، وهي فدك وتيماء ووادي القرى، وعندما علم يهود فدك بما جرى لجيرانهم من يهود خيبر تملكهم الرعب، فقبلوا أن يصالحوا الرسول على نصف أموالهم دون قتال، ومن هنا أصبحت فدك خالصة لرسول الله ولم تصبح فيئًا كخيبر لأن المسلمين لم يُجلبوا عليها بخيل ولا ركاب، أي لم يقاتلوا دونها. أما يهود وادي القرى فإنهم لم يزعنوا منذ البداية بل قاتلوا حتى اضطروا إلى التسليم، وصالحوا رسول الله على ما صالحه عليه أهل خيبر، وهكذا دان اليهود للمسلمين، ولم يعودوا يشكلون خطرًا على مسار الدعوة الإسلامية، لكنهم في الوقت نفسه وجدوا من الرسول كامل الرعاية لعهوده معهم، فتمتعوا بالأمن على أنفسهم وأموالهم وبحرية العقيدة.

عمرة القضاء: ذو القعدة ٧هـ

كان من بنود صلح الحديبية أن يخرج المسلمون معتمرين بعد انقضاء العام، على أن تُخلي قريش مكة لهم ثلاثة أيام. فلما انقضى العام خرج الرسول في ذي القعدة ٧هـ معتمرًا عمرة القضاء، وخرج معه المسلمون ممن كانوا في عمرته تلك، فأخلت قريش لهم مكة، فدخلها الرسول والمسلمون، فأقاموا بها ثلاثًا، وقضوا عمرتهم، ثم انصرفوا راجعين إلى المدينة بعد أن ملأوا أرجاء مكة بذكر الله وأعلنوا فيها شعار الإسلام. ورغم إخلاء قريش مكة للمسلمين فإنها كانت بحيث تستطيع أن تَرْقُب هذا الحشد الهائل من المسلمين الذين جاءوا ليطوفوا بالبيت العتيق في مشهد يأخذ بمجامع القلوب، ولا شك أن ذلك كان له عميق الأثر في نفوس الكثيرين.

سرية مؤتة جمادي الأولى ٨هـ

أرسل الرسول أحد أصحابه إلى ملك بُصْرى أحد ملوك الغساسنة بالشام بكتاب يدعوه فيه إلى الإسلام، فاعترض طريقه شرحبيل بن عمرو الغسّاني وقتله في مؤتة. وعندما أرسل الرسول شجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمر الغسّاني أساء استقبال مبعوث رسول الله وهدد بإعلان الحرب على المدينة. ثم تجاوزت إساءات عرب الشام للمسلمين عندما أرسل الرسول في ربيع الأول سنة ٨ هـ خمسة عشر من أصحابه إلى مكان يُقال له "ذات أطلاح" بالشام، فوثبت عليهم "قضاعة" بجموعها فقتلتهم جميعًا إلا واحدًا نجا وبه رَمَق، واستطاع أن يصل إلى الرسول ويخبره بما حدث. كل هذه الأسباب جعلت رسول الله يتخذ قرارًا بتأديب عرب الشام الموالين للروم.

أعد الرسول جيشًا بلغ عدده ثلاثة آلاف مقاتل، وجعل أمير الجيش زيد بن حارثة، فإن أُصيب فالأمير جعفر بن أبي طالب، فإن أُصيب فعبد الله بن رواحة. تحرك الجيش في جمادى الأولى سنة ٨ هـ، وكان الرسول قد أوصى زيد بن حارثة ورجاله أن يتوجهوا إلى مؤتة حيث قُتل الحارث بن عمير، وأن يدعوا من هناك إلى الإسلام، فإن أجابوا وإلا استعانوا عليهم بالله وقاتلوهم.

عندما سمع عرب الشام يتحرك الجيش الإسلامي استعانوا بالروم فأصبح جيش العدو أضعاف الجيش الإسلامي. وعندما فوجئ المسلمون بما لم يكونوا يحتسبون من ضخامة جيش العدو تشاوروا فيما بينهم: ماذا يصنعون؟ ولكن عبدالله بن رواحة حسم الأمر بقوله: "ما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا؛ فإنما هي إحدى الحسنيين." فقال المسلمون: قد والله صدق ابن رواحة.

فمضى المسلمون للقاء العدو حتى وصلوا إلى البلقاء من أرض الشام، وهناك اتخذوا من قرية مؤتة مركزًا لهم. وفي هذا المكان التقى المسلمون بجيش العدو، وقد استُشهد في بداية اللقاء زيد بن حارثة، ثم حمل الراية جعفر فاستُشهد، ثم جاء الدور على عبدالله بن رواحة، الذي تردد في البداية بعض التردد، ولكنه سرعان ما ذكر نفسه بما تمناه من الشهادة، فتقدم متأسيًا بصاحبيه زيد وجعفر، ثم قاتل حتى استُشهد.

ثم دفعت الراية إلى ثابت بن أرقم، ولكنه دفعها إلى خالد بن الوليد، وقال له: "أنت أعلم بالقتال مني." وكان خالد قد أسلم في نفس العام وكانت مؤتة أول مشاهده في الإسلام. وكان على خالد أن ينقذ جيش المسلمين من الدمار الكُلّي، فاجتهد في أن يُعدّل وضع الجيش حتى يُوهم الأعداء أن مددًا قد جاءهم من المدينة فلا يجترئوا على تعقب الجيش المنسحب. وقد نجحت خطة خالد، فدار بالمسلمين حتى

انسحب بهم ووصل بهم إلى المدينة دون خسائر تُذكر. ولا شك أن صنيع خالد كشف عن عبقرية عسكرية لا تُدانى، ولم يكتم الرسول إعجابه به في هذه المناسبة فقال: "اللهم إنه سيف من سيوفك"، فمنذ ذلك اليوم عُرف خالد بسيف الله.

كانت هذه المعركة الأولى بين المسلمين والروم، فكانت الشرارة الأولى في ذلك الصراع الذي استمر أكثر من ثمانية قرون بين الجانبين. ورغم أن المسلمين لم يحققوا نصرًا في هذه المعركة، فمن الصعب أن نقول إنهم هُزموا، فالجيش الإسلامي رجع المدينة سالمًا، ولم يتجاوز عدد الشهداء اثني عشر. ولو كان ما حدث في مؤتة هزيمة بالمعنى الدقيق لَسُحق الجيش الإسلامي سحقًا.

ولكن لقي المسلمون المنسحبون شدة من سوء استقبال أهل المدينة لهم؛ فقد لقيهم الصبيان يشتدون، وجعل الناس يحثون على الجيش التراب ويقولون: "يا فَرّار! فررتم في سبيل الله!" فقال رسول الله: "ليسوا بالفَرّار، ولكنهم الكَرّار إن شاء الله."

فتح مكة "رمضان ٨هـ"

في صلح الحديبية دخلت خزاعة في عقد رسول الله وعهده، ودخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم. وقد حدث أثناء هدنة الحديبية أن عَدَت بنو بكر على خزاعة فأصابوا منها رجلًا، واقتتل الفريقان، وأمدّت قريش حلفاءها من بني بكر بالسلاح والرجال، وتظاهر الجميع على خزاعة حلفاء الرسول وقاتلوها فكانت لهم الكَرّة عليها.

هنا خرج أحد رجال خزاعة حتى قدم على رسول الله في المدينة، فشرح له ما حدث من نقض قريش لعهدها معه بمناصرتها لحلفائها من بني بكر على حلفائه من بني خزاعة. فوعده الرسول بالنصر. ثم جاء خزاعي آخر في نفر من قومه إلى الرسول ليؤكد له نقض قريش لعهدها معه، ويلتمس نصرته.

أحست قريش بخطورة ما أقدمت عليه، ولهذا أرسلت إليه أبا سفيان بالمدينة ليؤكد معه عقد الحديبية ويزيد في مدته، ولكن مهمة أبي سفيان باءت بالفشل؛ لأن رسول الله رفض أن يجيبه. وقد حاول أبو سفيان أن يستعين ببعض كبار الصحابة ليشفعوا له لدى الرسول فرفضوا جميعًا.

خرج الرسول في العاشر من رمضان سنة ٨هـ متوجهًا نحو مكة على رأس جيش بلغ عشرة آلاف رجل، فقد أصبح أتباع دين محمد يمثلون قوة هائلة لا قِبَل لقريش بها، كما فقدت قريش كثيرًا من أئمة الكفر فيها وقادة الحروب ضد المسلمين كأبي جهل وأمية بن خلف وعتبة وشيبة ابني ربيعة. ثم إن بعض أبطالها المعدودين قد أسلموا وأصبحوا حربًا على الوثنية كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص. هذا فضلًا عن أن فريقًا من ألدّ أعداء الإسلام – وهم اليهود – كانوا قد تجرعوا كأس الهزيمة المرة على يد المسلمين، ففقدت قريش بذلك حليفًا مخلصًا في حربها ضد الإسلام. كل هذه العوامل جعلت استسلام مكة للجيش الإسلامي أمرًا مُسلّمًا به.

وأثناء تقدم الرسول نحو مكة بجيشه لقيه عمه العباس بن عبدالمطلب مسلمًا مهاجرًا بعياله، وحين رأى العباس هذا الجيش الهائل وعرف أن وجهته مكة قرر أن يتصل بقريش ويطلب منهم أن يستسلموا لرسول الله ويطلبوا منه الأمان نجاة بأنفسهم. فالتقى في طريقه بأبي سفيان، فقال له: "هذا رسول الله ورائي قد دلف إليكم بما لا قبل لكم به: بعشرة آلاف من المسلمين." فطلب منه العباس أن يصحبه إلى رسول الله بالمدينة ليطلب منه الأمان. ولعل العباس كان يدرك أن حصول أبي سفيان على الأمان من رسول الله سوف يتبعه حصول أهل مكة في مجموعهم على الأمان؛ لأن أبا سفيان كان زعيم قريش وسيد مكة في ذلك الوقت.

وقد استجاب أبو سفيان لاقتراح العباس، وتوجه معه إلى الرسول، وأثناء مرورهما على جماعات المسلمين لمح عمرُ أبا سفيان بصحبة العباس، فذهب مسرعًا إلى الرسول، ولكن العباس وأبا سفيان سبقاه إلى هناك. فلما دخل عمر على الرسول وعنده العباس وأبو سفيان قال: "يا رسول الله، هذا أبو سفيان عدو الله! قد أمكن الله منه بغير عهد ولا عقد، فدعني أضرب عنقه." فقال العباس: "يا رسول الله، إني قد أجرته." فقال له الرسول: "اذهب فقد أمّنّاه حتى تغدو به عليّ بالغداة."

فلما أصبح غدا به على رسول الله، فقال له: "ويحك يا أبا سفيان! ألم يأنِ لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟" فقال: بأبي أنت وأمي، ما أوصلك وأحلمك وأكرمك! والله لقد ظننتُ أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئًا. فقال له الرسول: "ويحك يا أبا سفيان! ألم يأنِ لك أن تعلم أني رسول الله؟" فقال: بأبي أنت وأمي، ما أوصلك وأحلمك وأكرمك! أما هذه ففي النفس منها شيء! فراجعه العباس حتى شهد أن محمدًا رسول الله.

وأراد العباس أن يضمن أن الأمان الذي منحه الرسول لأبي سفيان سوف يشمل غيره من أهل مكة، فقال: "يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئًا يكون في قومه." فقال الرسول: "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن،

ومن أغلق عليه بابه فهو آمن." وبذلك لم يخرج عن نطاق الأمان إلا من سلّ سيفه في وجه المسلمين.

وبعد هذا الأمان انطلق أبو سفيان إلى مكة حتى إذا جاءها صاح بأعلى صوته: "يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به؛ فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن." فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد.

وهكذا لم تتأهب قريش في جملتها للقتال، فزحف الجيش نحو مكة، وعهد الرسول إلى أمراء جيشه حين أمرهم أن يدخلوا مكة ألا يقتلوا أحدًا إلا من قاتلهم. فدخل المسلمون مكة دون مقاومة، إلا ما كان من صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو الذين جمعوا شرذمة من الناس وحاولوا التصدي لجناح من الجيش الإسلامي كان يقوده خالد بن الوليد، فانهزمت هذه الشرذمة أمام جيش خالد وفرّ زعماؤها.

وعندما دخل الرسول مكة فاتحًا منتصرًا توجه نحو البيت، فطاف به سبعًا واستلم الحجر الأسود، ثم قام على باب الكعبة، وقريش قد اصطفّوا بها، فقال:

"لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يُدّعى فهو تحت قدميّ

هاتين، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج. إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظّمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم خُلق من تراب."

ثم تلا قوله تعالى:

(إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير).

ثم قال:

"يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟"

قالوا: خيرًا، أخٌ كريم وابن أخٍ كريم!

قال: "اذهبوا فأنتم الطلقاء."

وأمر الرسول بلالًا أن يصعد فيؤذن على الكعبة، وأشراف قريش جلوس بفنائها. كما أمر بالأصنام فهُدمت وهو يتلو قوله تعالى:

(جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقًا).

كان فتح مكة في العشرين من رمضان سنة ٨هـ، وأقام بها الرسول بعد الفتح خمسة عشر يومًا. وقد تكلم بعض الأنصار في احتمال أن يقيم الرسول بمكة موطنه الأصلي بعد أن فتحها الله عليه وأن

يتخلى عن المدينة، فلما علم الرسول بذلك قال: "كلا، إني عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليكم، فالمحيا محياكم والممات مماتكم".

وبذلك وضح الأسلوب الذي عامل به الرسول أهل مكة بعد فتحها فلسفة الإسلام في الحرب؛ فما شُرعت الحرب في الإسلام إلا ردًّا لظلم واقع أو متوقع، وما كان الهدف منها قط الانتقام وسفك الدماء.

غزوة حُنين والطائف

شوال – ذو القعدة ٨هـ

حين خرج الرسول لغزو مكة لم يكن العرب يعلمون غايته على وجه التحديد، وظنت قبيلة هوازن التي كانت تقيم جنوب شرقي مكة أن الرسول متوجه لغزوها، فجمعت جموعها واستعدت للقتال. ثم توجه الرسول نحو مكة وكان ما كان من الفتح العظيم، وهنا أدركت هوازن أن المد الإسلامي يوشك أن يجتاحها، فرأت حتمية الدخول مع المسلمين في جولة حاسمة تقضي بها على شوكتهم. وأدركت أنها لا تستطيع تحقيق تلك الغاية ما لم تلجأ إلى شريك قوي يشد من أزرها. وقد وجدت بغيتها في ثقيف ذات البراعة الفائقة في فنون الحرب والقتال، وهكذا تحالفت هوازن وثقيف على حرب المسلمين، وأقبلت جموعهم بقيادة مالك بن عوف حتى نزلوا حنينًا، وهو وادٍ بين مكة والطائف، وكان رسول الله ما زال في مكة لم يبرحها مع أصحابه بعد الفتح.

وقد لجأ مالك بن عوف إلى وسيلة يضمن بها استماتة رجاله في القتال، فأمر الناس أن يأخذوا معهم أموالهم ونساءهم وأبناءهم، والحكمة من ذلك أن يجعل خلف كل رجل أهله وماله يقاتل عنهم. ولما علم الرسول ذلك أرسل إليهم أحد رجاله ليأتيه بمزيد من

الأخبار عنهم، فلما ذهب في مهمته ورجع أكد للرسول صدق ما بلغه عن عدوه. فخرج من مكة في شوال سنة ٨هـ في اثني عشر ألفًا من المسلمين، منهم ألفان من أهل مكة، أما الباقون فمن الذين فتح الله بهم مكة، ثم توجه للقاء عدوه في وادي حنين. وقد أعجبت المسلمين كثرتهم فقال بعضهم: "لن نغلب اليوم من قلة".

ودخل المسلمون وادي حنين وكانت هوازن وثقيف قد كمنوا لهم في شعابه ومضايقه، فبرزوا لهم في عماية الصبح من مكامنهم، وشدوا عليهم شدة رجل واحد، ولم يكن المسلمون قد أعدوا أنفسهم لمثل هذه المفاجأة، فسيطر الذعر والفوضى على صفوفهم، واضطرب شملهم وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، ثم ولوا مدبرين! ومن هنا أظهر بعض أهل مكة ما في نفوسهم من الضغينة؛ فقد أسلم بعضهم ولم يدخل الإيمان في قلوبهم.

وقد وقف الرسول في مكانه ثابتًا كالطود، ووقف بجانبه نفر قليل من المهاجرين والأنصار وأهل بيته، وصاح في المسلمين المنهزمين: "أين أيها الناس؟ هلمّ إلي! أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله". ونزل من على بغلته وهو يرتجز: "أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب". ثم أمر عمه العباس، وكان جهوري الصوت، أن يصرخ: "يا معشر الأنصار! يا أصحاب السمرة!" اسم الشجرة التي كانت تحتها بيعة الرضوان، "يا أهل بيعة الرضوان"، فأجابوا: لبيك لبيك،

ورجعت الأنصار وهم يقولون: "الكرة بعد الفرة"، واجتمع إلى رسول الله مائة من أصحابه، استقبلوا عدوهم وقاتلوا قتال المستميت.

فقال الرسول حين رأى القوم وهم يجتلدون: "الآن حمي الوطيس". وعندما رأى بقية المسلمين ثبات هؤلاء النفر حول رسول الله ثابوا إليه، لتكون لهم الكرة على عدوهم، وكان علي بن أبي طالب قد نجح في أن يقتل صاحب راية هوازن، فأدى ذلك إلى اضطراب شمل المشركين.

فأحاط بهم المسلمون وأعملوا السيف فيهم، فانهزموا أمامهم لا يلوون على شيء حتى أتى معظمهم إلى الطائف، بعد أن كان المسلمون قد قتلوا منهم وأسروا وسبوا، وغنموا غنائم كثيرة، وكان من بين الذين ذهبوا إلى الطائف مالك بن عوف قائد جيش المشركين.

وهكذا تحصنت فلول هوازن وثقيف بالطائف، وأغلقوا عليهم أبواب تلك المدينة المنيعة، وصنعوا الصنائع للقتال، فسار إليهم الرسول وفرض حصارًا عليهم في شوال ٨هـ. وقد لقي المسلمون عناء في حصار الطائف؛ فقد كان أهلها من ثقيف أصحاب خبرة طويلة في القتال من وراء الحصون، فاستطاعوا أن يقتلوا بالنبل عددًا من المسلمين أثناء الحصار، فأمر الرسول المسلمين أن يرموا الحصون بالمنجنيق الذي استولى عليه المسلمون من حصون خيبر، كما

دخل نفر من أصحاب الرسول تحت دبابة تعمل عمل الدرع، ويكون سقفها حرزًا لهم من الرمي، ثم زحفوا بها إلى جدار الطائف ليحرقوه، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار فخرجوا من تحتها، فرمتهم بالنبل وقتلت رجالًا، فأمر الرسول بقطع أعناب ثقيف فوقع الناس فيها يقطعون.

وعندئذ أرسلت ثقيف إلى الرسول تسأله أن يدع لهم أعنابهم لله والرحم، فتركها لهم، ثم أمر مناديًا فنادى في ثقيف: أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر. فخرج إليه منهم بضعة عشر رجلًا فاشتد ذلك على أهل الطائف. وقد استمر حصار الطائف ما يقرب من الشهر، ثم أمر الرسول برفع الحصار في ذي القعدة ٨ هـ؛ ذلك أنه علم أن ثقيف قد أعدت عدتها لحصار طويل، كما سقط من أصحابه اثنا عشر شهيدًا بنبال ثقيف، ولم يظهر بعد ما يشير إلى قرب استسلام الطائف.

وبعد رفع الحصار عن الطائف توجه الرسول إلى مكة معتمرًا، وفي طريقه في مكان يقال له "الجعرانة" نزل بالمسلمين، حيث قسم بينهم غنائم هوازن، وكانت بالغة الكثرة؛ فقد كان مع رسول الله من سبي هوازن ستة آلاف من الذراري والنساء، ومن الإبل والشاء ما لا يُدرى عدده. فجاءه وفد هوازن يعلنون إسلامهم، فرد إليهم أبناءهم ونساءهم، ولم يكن في الوفد مالك بن عوف قائد هوازن، فقال لهم الرسول: "أخبروا مالكًا أنه إن أتاني مسلمًا رددت عليه أهله وماله،

وأعطيته مائة من الإبل". فلما أخبر مالك بذلك تسلل ليلًا من الطائف دون أن تعلم به ثقيف، ثم لحق بالرسول، فرد عليه أهله وماله وأعطاه من الإبل، وأسلم فحسن إسلامه، واستعمله الرسول على قومه وعلى من أسلم من القبائل حول الطائف، فكان يقاتل بهم ثقيف، لا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه حتى ضيق عليهم.

وبعد أن فرغ الرسول من رد سبايا هوازن أخذ يقسم الغنائم بين المسلمين، وقد خص طائفة ممن أسلموا حديثًا بمزيد من العطاء ليتألف قلوبهم، ومنهم أبو سفيان بن حرب وابنه معاوية وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وغيرهم، ممن أطلق عليهم لقب المؤلفة قلوبهم، ولكن الرسول لم يعط الأنصار شيئًا، فتأثر بعضهم من ذلك، واتصل سعد بن عبادة بالرسول وكلمه في هذا الأمر نيابة عن الأنصار، فجمعهم الرسول وقال: "يا معشر الأنصار، مقالة بلغتني عنكم وموجدة وجدتموها في أنفسكم؟

ألم آتكم ضُلَّالًا فهداكم الله! وعالة فأغناكم الله! وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟" قالوا: "بلى، لله ولرسوله المنّ والفضل".

قال: "أما والله لو شئتم لقلتم فصدقتم ولصُدِّقتم: أتيتنا مكذبًا فصدقناك، ومخذولًا فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلًا فآسيناك.

وجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم!

أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير، وترجعون برسول الله إلى رحالكم!

فوالذي نفسي بيده، لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار.

اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار!"

فبكى الأنصار حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسمًا وحظًا!

ثم واصل الرسول مسيره إلى مكة ليؤدي العمرة، وكان ذلك في ذي القعدة، فلما فرغ منها عاد إلى المدينة، واستخلف على مكة عتاب بن أسيد.

إسلام ثقيف

عندما رفع رسول الله الحصار عن الطائف في ذي القعدة سنة ٨هـ قال له بعض أصحابه: يا رسول الله، ادعُ عليهم، فقال: "اللهم اهدِ ثقيفًا وائتِ بهم".

وحين انصرف الرسول عن الطائف اتبع أثره سيد من سادات ثقيف وهو عروة بن مسعود، فأدركه قبل أن يصل إلى المدينة فأسلم.

ورجع إلى قومه ليدعوهم إلى الإسلام فقتلوه. وهكذا استمروا على عنادهم حتى بدأوا يدركون أنه لا جدوى من استمرارهم على ذلك، فقد استسلمت هوازن، وانضم قائدها مالك بن عوف إلى معسكر المسلمين، فأصبحت حربًا عليهم حتى ضيقوا عليهم. كما أن بعد فتح مكة بدأ الإسلام ينتشر انتشارًا واسعًا، فأصبحت ثقيف جزيرة منعزلة في محيط يموج بكتائب الإسلام.

من أجل ذلك اجتمع سادة ثقيف وتشاوروا فيما بينهم، وقال بعضهم لبعض: ألا ترون أنه لا يأمن لكم سَرَب ولا يخرج منكم أحد إلا اقتطع به؟ ومن هنا اتفقوا على إرسال وفد إلى رسول الله يعرضون عليه الإسلام والبيعة.

وعندما قدم وفد ثقيف إلى رسول الله عرضوا عليه أن يسلموا بشرط أن يترك لهم "اللات" ثلاث سنين، وأن يعفيهم من الصلاة! وقد أبى رسول الله أن يدع لهم اللات يومًا واحدًا، ولكنه أعفاهم من كسر أوثانهم بأيديهم، وأرسل إليهم أبا سفيان والمغيرة بن شعبة ليقوما بذلك.

وأما الصلاة فقد أكد لهم أنها جوهر الدين، فلا خير في دين لا صلاة فيه.

وعندئذ أذعنت ثقيف لدعوة الحق ودخلت في دين الله، وكان ذلك في رمضان ٩ هـ أي بعد رفع الحصار عنها بحوالي عشرة شهور.

غزوة تبوك رجب ٩هـ

ترامت الأنباء إلى الرسول أن هرقل إمبراطور الروم يعد العدة لحرب المسلمين، وأنه حشد حشوده من الروم والقبائل العربية الموالية له ليزحف على المدينة، ومن هنا أمر الرسول أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم، وذلك في زمن عسرة من الناس وشدة من الحر وجدب من البلاد. وكان من عادة الرسول عندما كان يخرج في غزوة ألا يذكر للمسلمين وجهته، ولكن لم يفعل ذلك في غزوة تبوك؛ حيث بينها للناس لبعد الشقة وشدة الزمان وكثرة العدو الذي يصمد له، ليتأهب الناس لذلك أهبته، فأمر الناس بالجهاز، وأخبرهم أنه يريد الروم.

وقد تخاذل بعض المنافقين وتخلفوا عن رسول الله وثبطوا الناس عن المشاركة في الجهاد، ورغم ذلك فقد استجاب الكثير من المسلمين لنداء رسول الله، فخرج معه منهم ثلاثون ألفًا، وكانت الخيل عشرة آلاف فرس، وأنفق بعض المسلمين على هذا الجيش الذي أطلق عليه جيش العسرة أموالًا طائلة، ومن هؤلاء عثمان بن عفان الذي تبرع بألف دينار عينًا وثلاثمائة بعير بكل ما تحمل، فقال الرسول: "اللهم ارضَ عن عثمان فإني عنه راضٍ".

خرج الرسول في رجب ٩هـ على رأس جيشه متوجهًا صوب الشام حتى وصل إلى تبوك بشمال الحجاز على مشارف الشام في شعبان من نفس العام، وقد أقام في تبوك بضعة عشرة ليلة، وهناك عرف أن الروم وحلفاءهم من العرب لم يخرجوا بجيوشهم لمقاتلة المسلمين كما أشيع قبل ذلك، فاستشار أصحابه في مواصلة التقدم أو العودة إلى المدينة، فقال له عمر بن الخطاب: يا رسول الله، إن للروم جموعًا كثيرة، وليس بها أحد من أهل الإسلام.

وقد دنوتَ منهم حيث ترى، وقد أفزعهم دنوك، فلو رجعت هذه السنة حتى ترى أو يحدث الله عز وجل في ذلك أمرًا.

وقد عبرت مشورة عمر عن حقيقة الموقف، فلما تبين للرسول أنه لا توجد حشود للروم تهدد أمن المدينة، لم يجد مبررًا لاستمرار سيره نحو الشام.

وقد انتهز الرسول فرصة وجوده بتبوك، فأراد أن يضع حدًّا لما كان يتعرض له المسلمون من تهديد على يد القبائل العربية الموالية للروم، وهي التي كانت تقطن على طريق الشام، ومن هنا أرسل خالد بن الوليد على رأس قوة مكونة من أربعمائة وعشرين فارسًا إلى دومة الجندل. وقد استولى خالد على دومة الجندل وأسر ملكها وقدم به إلى رسول الله، فصالحه على الجزية وأمّن أهل دومة الجندل، وكتب لهم كتابًا بذلك.

وعندما علم أهل المستوطنات القريبة بشأن هذا الصلح اتصلوا بالرسول وسألوه أن يصالحهم، فأجابهم إلى ذلك، وهم أهل أذينة، وأذرح، ومقنا، والجرباء، وقد تعهد الجميع بدفع جزية سنوية للرسول مقابل أمانهم على أنفسهم وأموالهم.

وهكذا يمكن القول إن غزوة تبوك حققت نتيجة مهمة، وهي تأليف عدد من القبائل العربية على حدود الشام وكف كثير من أذاها عن المسلمين، وكان ذلك مقدمة لإسلام معظمها فيما بعد.

وكانت غزوة تبوك آخر غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم، وبعد هذا الإنجاز العظيم غادر الرسول صلى الله عليه وسلم تبوك متوجهًا صوب المدينة، فوصلها في رمضان من العام التاسع للهجرة.

قدوم وفود العرب إلى المدينة

معلنة إسلامها منذ العام التاسع الهجري

يعد العام التاسع للهجرة مَعْلَمًا بارزًا في مسار الدعوة الإسلامية؛ فقد كان بداية مرحلة جديدة من الانتشار الواسع لدعوة الإسلام في جميع أرجاء شبه الجزيرة العربية. أدركت العرب بعد استسلام قريش وبعد الانتصارات الساحقة التي أحرزها المسلمون أنه من الأجدر بهم أن ينضموا تحت لواء هذا الدين؛ فهو دين الله إلى الناس كافة، ولا جدوى من الاستمرار في تجاهله والإعراض عنه.

ومن هنا بدأت القبائل المختلفة تبعث وفودها إلى الرسول معلنة إسلامها، وقد شهد العام التاسع بداية هذه الوفود، ومن ثم عُرِف بعام الوفود؛ فقد وفد فيه على الرسول وفد بني تميم، وقد نادوا رسول الله من وراء الحجرات: أن اخرج إلينا يا محمد، فآذوه بصياحهم، فنزل فيهم قوله تعالى: "إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرُهُم لا يعقلون". كما وفد على الرسول وفد بني أسيد، وقالوا: أتيناك قبل أن ترسل إلينا رسولًا، فأنزل الله قوله: "يمنّون عليك أن أسلموا، قل لا تمنّوا عليَّ إسلامكم، بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين".

وقدم على الرسول أيضًا وفود بَهْراء وبني فَزارة وبني البَكّاء وبني سعد بن بكر، وكان ضِمَام ابن ثعلبة هو وافد بني سعد على الرسول، وقد أسلم قومه جميعًا بإسلامه عندما رجع إليهم. يقول ابن عباس: "فما سمعنا بوافد قوم كان أفضل من ضِمام بن ثعلبة".

وفي نفس العام أرسل ملوك حِمْيَر باليمن كتابًا إلى الرسول يقرّون فيه بالإسلام، فكتب لهم كتابًا يذكر لهم فيه أن من آمن بالله ورسله، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، وأشهد على إسلامه، وظاهر المؤمنين على المشركين، فإنه من المؤمنين، له ما لهم وعليه ما عليهم، وله ذمّة الله وذمّة رسوله.

وإنه من أسلم من يهودي أو نصراني فإن له مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم، ومن كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يُفتن عنها وعليه الجزية.

وأرسل إليهم من أصحابه جماعةً على رأسهم معاذ بن جبل ليفقهوهم في الدين ويجمعوا صدقاتهم.

ولم تتوقف الوفود، بل إنها ازدادت تدفقًا في العام العاشر، فمن بين الوفود الكثيرة التي قدمت على الرسول المقرّة بالإسلام في ذلك العام: وفد الأزد، ووفد مُراد، ووفد زُبيد، ووفد عبد القيس، ووفد كِندة، ووفد طيئ، ووفد بني حنيفة وفيهم مسيلمة بن حبيب الذي ادّعى النبوة بعد ذلك.

والجدير بالذكر هنا أن هذه الوفود لم تكن سواءً في حقيقة موقفها من الإسلام؛ فقد أسلم بعضها إسلامًا حقيقيًّا صادقًا، في حين أسلم بعضها الآخر إسلامًا سطحيًّا مجاراةً للتيار، وإلى هذا الفريق الثاني أنزل الله قوله تعالى: "قالت الأعراب آمَنّا، قل لم تؤمنوا، ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم". ولهذا كان هؤلاء سِراعًا إلى الردة بعد وفاة الرسول، بل قبل وفاته.

كما يُروى أن مسيلمة بن حبيب كتب إلى رسول الله كتابًا مع وفد بني حنيفة: "من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، سلامٌ أُشركتُ في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض، ولقريش نصف الأرض"، فأرسل إليه الرسول يقول: "من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذّاب، سلام على من اتّبع الهدى، أما بعد: فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين".

ولكن هذا لا يمنعنا من تقرير حقيقة أساسية، وهي أن الإسلام منذ العام التاسع أخذ يضرب بجذوره في أبعاد شبه الجزيرة العربية ويثبت قواعده، ودانت بلاد العرب في مجموعها لكلمة الله بعد أن قاومتها زمنًا. ولهذا ذكّر الله رسوله بهذا الفضل حين أنزل سورة النصر بمِنى في حجة الوداع.

حجة الوداع ١٠هـ

في ذي القعدة من السنة العاشرة للهجرة تجهّز الرسول للحج، وأمر الناس بالجهاز له، ثم خرج مع أصحابه إلى مكة. وقد عُرفت هذه الحجة بحجة الوداع، وسُمّيت بذلك بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه ودّع فيها الناس ولم يحجّ بعدها.

كما تُسمّى حجة البلاغ لأن الرسول بلّغ شرع الله في الحج قولًا وفعلًا، وبيّن للناس خلالها ما بيّنه من مبادئ الإسلام في خطبته المعروفة التي تكرر فيها حديثه عن تبليغ الدعوة.

فقد خطب عندئذ خطبة عميقة التأثير، ومما جاء فيها:

"أيها الناس، اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدًا.

أيها الناس! إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقَوا ربكم، كحرمة يومكم هذا وحرمة شهركم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت.

فمن كان عنده أمانة فليؤدّها إلى من ائتمنه عليها، وإن كل ربا موضوع، ولكم رؤوس أموالكم، لا تَظلمون ولا تُظلمون. قضى الله أنه لا ربا...

أيها الناس، إن الشيطان قد يئس أن يُعبد بأرضكم هذه أبدًا، ولكنه رضي أن يُطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم.

واستوصوا بالنساء خيرًا، فإنهنّ عندكم عَوانٍ (أسيرات)، لا يملكن لأنفسهن شيئًا، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله.

فاعقلوا أيها الناس واسمعوا قولي، فإني قد بلغت، وتركْتُ فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلّوا بعدي أبدًا: كتاب الله وسنة نبيه.

أيها الناس، اسمعوا قولي فإني قد بلغت، واعقلوه.

تعلّمُنَّ أن كل مسلم أخو المسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحلّ لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس، فلا تظلموا أنفسكم.

اللهم هل بلغت!".

هكذا انتهز الرسول فرصة هذا الجمع الحاشد في هذا الموقف المهيب، فأبرز أهم ما في الإسلام من معانٍ وقيم: كحرمة الدماء والأموال، وتحريم الربا، وأهمية أداء الأمانات إلى أهلها، وحقوق النساء وحسن معاملتهن، وقيمة الأخوة الإسلامية.

ويمكن القول إن دعوة الإسلام وصلت إلى غايتها، فنزل عندئذ . والرسول ما زال بعرفة . قوله تعالى: "اليوم أكملت لكم دينكم"، فكانت هذه الآية آخر ما نزل من القرآن الكريم، وكانت تتويجًا للنضال الطويل الذي خاضه رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبيل تبليغ كلمة الله.

ويُروى أن عمر بن الخطاب بكى حين نزلت هذه الآية، فقد أحسّ أنها نذير بقرب وفاة الرسول بعد أن اكتمل الدين الذي أرسله الله به.

وفاة الرسول ١٢ ربيع الأول ١١هـ / يونيو ٦٣٢م

بعد عودة رسول الله إلى المدينة من حجة الوداع أخذ يعدّ العدّة لإرسال سرية إلى بلاد الشام بهدف تأديب القبائل العربية الموالية للروم هناك، وهي القبائل التي لم تنجح سرية مؤتة في تأديبها نظرًا لما قدمه الروم لهم من عدد وعدّة قبل ذلك، ومن استشهاد قادة المسلمين الثلاثة: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة.

وقد اختار لقيادة هذه السرية أسامة بن زيد بن حارثة، الذي استشهد أبوه في مؤتة، وكان هذا الاختيار تعبيرًا عن الهدف الذي أراده الرسول صلى الله عليه وسلم من إنفاذه لهذه السرية.

وكان أسامة حينئذ فتىً صغير السن في حدود العشرين من عمره، وكان في جيشه جِلّة المهاجرين والأنصار، ولهذا اعترض البعض على إمارته، فقال صلى الله عليه وسلم:

"قد بلغني أن قومًا يقولون في إمارة أسامة، ولعمري لئن قالوا في إمارته لقد قالوا في إمارة أبيه من قبل، وإن كان أبوه لخليقًا للإمارة، وإنه لخليق لها، فأنفذوا بعث أسامة".

ثم لما أتم أسامة استعداده، تحرك في آخر صفر سنة ١١هـ على رأس جيش مكوّن من ثلاثة آلاف مقاتل، وتقدم حتى وصل إلى الجُرْف على بعد حوالي ٥ كيلومترات إلى الشمال من المدينة، وهناك علم بمرض الرسول فلم يبرح مكانه.

وقد تطور هذا المرض إلى وفاته صلى الله عليه وسلم، فعاد أسامة إلى المدينة، ثم كان إنفاذ بعثه على الوجه الذي أراده الرسول صلى الله عليه وسلم أولَ قرارات أبي بكر.

وقد ابتدأ برسول الله مرضه في الأيام الأخيرة، وكان مرضه الحمى، وقد اشتدّ به الوجع، ولكن المرض لم يشغله عن الاهتمام بشؤون المسلمين، فقد كان حريصًا على متابعة أخبار مسيلمة باليمامة، والأسود العنسي باليمن، وطليحة الأسدي بنجد، فقد اهتم بإرسال الرسل إلى هؤلاء وغيرهم ممن نقضوا عهدهم وارتدّوا عن الإسلام.

ويروي المؤرخون أن الرسول خرج إلى أصحابه بعد أن اشتد عليه المرض، فجلس على المنبر، ثم قال:

"إن عبدًا من عباد الله خيّره الله بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله".

ففهم أبو بكر إشارة الرسول صلى الله عليه وسلم، وعلم أنه ينعي لهم نفسه، فبكى وقال:

"بل نفديك بأنفسنا وأبنائنا".

فقال صلى الله عليه وسلم:

"على رسلك يا أبا بكر! انظروا هذه الأبواب (الشوارع) اللّافِظة في المسجد (أي النافذة إليه) فسدّوها إلا ما كان بيت أبي بكر.

فإني لا أعلم أحدًا كان أفضل عندي في الصحبة بدلًا منه".

ثم قال:

"فإني لو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكن صحبةٌ وإخاءُ إيمانٍ حتى يجمع الله بيننا عنده".

وعندما أقعد المرض رسول الله عن أن يؤم المسلمين في الصلاة عهد بهذه المهمة إلى أبي بكر، ولكن عائشة حاولت أن تثنيه عن قراره بقولها:

"إن أبا بكر رجل رقيق، وإنه متى يقوم مقامك لا يطيق!".

فلم يتزحزح عن موقفه.

وقد صلى أبو بكر بالمسلمين ثلاثة أيام أثناء مرض الرسول.

وانتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى في منتصف نهار يوم الإثنين ١٢ من ربيع الأول سنة ١١هـ / ٨ يونيو ٦٣٢م، وقد كان في بيت السيدة عائشة، وعندما ثَقُل في حجرها نظرت في وجهه، فإذا نظره قد شخَص، وهو يقول:

"بل الرفيق الأعلى من الجنة".

فقالت عائشة:

"خُيّرتَ فاخترتَ والذي بعثك بالحق".

وفاضت روحه الطاهرة.

لم يكن من السهل على المسلمين أن يستوعبوا خبر وفاته، وما حدث من عمر بن الخطاب يومئذ يوضح ذلك؛ فقد رُوي عنه أنه قال:

"إن رجالًا من المنافقين يزعمون أن رسول الله توفي.

وإن رسول الله . والله . ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فغاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع بعد أن قيل قد مات.

والله ليرجعن رسول الله، فليقطعنّ أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أن رسول الله قد مات".

ثم أقبل أبو بكر، وعمر يكلم الناس، فقال أبو بكر:

"على رسلك يا عمر!".

ثم تكلم أبو بكر في المسلمين، فأقبلوا عليه، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

"أيها الناس، إنه من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت".

ثم تلا هذه الآية:

"وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرَّ الله شيئًا، وسيجزي الله الشاكرين".

يقول أبو هريرة، وكان أحد شهود ذلك الموقف:

"فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تلاها أبو بكر يومئذ، وأخذها الناس من أبي بكر، فإنما هي في أفواههم".

عندئذ أدرك الجميع أن رسول الله قد فارقهم، وكان عليهم أن يواجهوا مسؤولية تلك اللحظة الدقيقة، فكانوا على مستوى الموقف، واجتمعوا على بيعة أبي بكر في نفس اليوم الذي تُوفي فيه رسول الله.

نبذة عن أخلاق المصطفى

كان طول حياته صلى الله عليه وسلم مثالًا للأمانة والصدق، فقد كان يُلقَّب قبل البعثة بالأمين، ولُقّب أيضًا بالصادق، لأنه ما كذب قط.

بل إن كفار قريش شهدوا له بذلك حين دعاهم إلى الإسلام فقالوا: ما جربنا عليك كذبًا.

كان العفو طبيعة متأصلة في نفسه

فقد كان يعفو وهو أقدر ما يكون على العقوبة؛ فقد عفا عن عتاة المشركين من قريش بعد فتح مكة، فقال لهم:

"اذهبوا فأنتم الطلقاء".

وتصفه عائشة بقولها:

"ما نِيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن يُنتهك شيء من محارم الله، فينتقم لله عز وجل".

وكان ليّن العريكة رحب الصدر

فيروى أن الرسول قال للناس في مرض موته:

"أيها الناس، من خشي من نفسه شيئًا فليقُم أدعُ له".

فقام رجل، فقال:

"يا رسول الله، إني لكذّاب، وإني لمنافق، وما شيء إلا وقد جنيته!".

فقال له عمر بن الخطاب:

"فضحتَ نفسك أيها الرجل!".

فقال الرسول:

"يا ابن الخطاب، فضوحُ الدنيا أهون من فضوح الآخرة!

اللهم ارزقه صدقًا وإيمانًا، وصيّر أمره إلى خير".

وقد سجّل القرآن هذا الجانب في شخصيته في قوله تعالى:

"فبما رحمةٍ من الله لِنتَ لهم، ولو كنت فظًّا غليظ القلب لانفضّوا من حولك".

كان أعدل الناس

فيروى أنه خرج في مرض موته إلى المسجد، فقال للناس:

"من كنت جلدتُ له ظهرًا فهذا ظهري فليستقِد منه، ومن كنت شتمتُ له عرضًا فهذا عرضي فليستقِد منه.

ألا وإن الشحناء ليست من طبعي ولا من شأني، ألا وإن أحبكم إليّ من أخذ مني حقًا إن كان له، أو حلّلني فلقيتُ الله وأنا طيب النفس".

كان زاهدًا في حطام الدنيا

رغم ما أتيح له من كل أسباب الوفرة والثراء؛ دخل عليه عمر بن الخطاب يومًا وهو على حصير قد أثّر في جنبه، فقال:

"يا نبي الله، لو اتخذت فراشًا أوثر من هذا!".

فقال:

"ما لي وللدنيا! ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف، فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار، ثم راح وتركها".

كان أجود الناس

كما يروي ابن عباس:

"وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن، فلرسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة".

وهو القائل:

"ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملَكان يقول أحدهما: اللهم أعطِ منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا".

كان جمّ التواضع رقيق المعاملة لخدمه وأهل بيته

جاءه رجل، فقال له: يا سيدنا وابن سيدنا.

فقال صلى الله عليه وسلم:

"لا يَستهوِيَنَّكم الشيطان! أنا محمد بن عبد الله ورسوله. والله ما أحبّ أن ترفعوني فوق ما رفعني الله".

وفي صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب أن الرسول قال:

"لا تُطروني كما أطرتِ النصارى عيسى بن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله".

وكان الرسول لا يحبّ أن يقوم له أصحابه، وكان أصحابه إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهيته لذلك.

وقد طالت خدمة أنس بن مالك للرسول صلى الله عليه وسلم، فكانت معاملته له غاية في التواضع والرقة.

يقول أنس:

"كان رسول الله من أحسن الناس خلقًا، فأرسلني يومًا لحاجة، فقلت: والله لا أذهب. وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبي الله.

فخرجت حتى أمرّ على صبيان يلعبون في السوق، فإذا رسول الله قد قبض بقفاي من ورائي. فنظرت إليه وهو يضحك، فقال:

'يا أُنيس، أذهبت حيث أمرتك؟'

قلت: نعم، أنا ذاهب يا رسول الله.

قال أنس: والله لقد خدمته تسع سنين، ما علمته قال لشيء صنعته: لمَ فعلتَ كذا وكذا؟ ولا لشيء تركته: هل فعلتَ كذا وكذا؟".

وقد سُئلت عائشة: كيف كان رسول الله في أهله؟

فقالت:

"كان ألين الناس وأكرم الناس، وكان ضحّاكًا بسّامًا".

وسُئلت أيضًا: هل كان رسول الله يعمل في بيته؟

فقالت:

"نعم، يخصف نعله ويخيط ثوبه".

كان من خلقه الوفاء والعرفان بالجميل

فظل مخلصًا لذكرى خديجة طوال حياته، ولم ينسَ لها مواقفها العظيمة معه قبل البعثة وبعدها...

وكيف غضب من عائشة عندما قالت له: "قد أبدلك الله خيرًا منها"، وأنكر عليها قولها.

وكان موقفه من أبي بكر تعبيرًا عن روح الوفاء عنده وحفظ الجميل لأهله، وهو القائل في مرض موته:

"لو كنتُ متخذًا خليلًا لاتخذتُ أبا بكر خليلًا، ولكن صحبةٌ وإخاءُ إيمان حتى يجمع الله بيننا عنده".

كان مضرب المثل في الشجاعة والثبات عند الشدائد

يُروى عن علي بن أبي طالب أنه قال:

"لما كان يوم بدر اتقينا المشركين برسول الله، وكان أشدّ الناس بأسًا".

وقد تقدّم في غزوة حنين أنه لما فرّ جمهور أصحابه ثبت في مكانه كالطَّوْد في نفر قليل من أصحابه، وعندما رأى المسلمون المنهزمون ما عليه رسولهم من قوة وثبات رجعوا فحملوا على المشركين، فكانت لهم الكرّة عليهم.

وكان ذلك بفضل شجاعة القائد ورَباطة جأشه.

ويطول بنا الحديث لو أردنا أن نتقصّى جميع جوانب العظمة في شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكننا نقتبس هنا تلك الكلمات البليغة المركّزة التي قالها علي بن أبي طالب في وصف أخلاق الرسول، حيث ذكر أنه كان:

"أجود الناس كفًّا، وأجرأ الناس صدرًا، وأصدق الناس لهجة، وأوفى الناس ذمة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشيرة.

من رآه بَدِيهةً هابه، ومن خالطه معرفة أحبّه".

وصدق الله العظيم إذ يقول وهو يُجمل كل الجوانب الخُلقية في رسوله صلى الله عليه وسلم:

"وإنك لعلى خُلُقٍ عظيم".

المراجع

ما بين دفّتي هذا الكتاب ثمار قطفتها من بساتين كتبٍ مباركة، فجمعت من كل بستان زهرة، راجية أن يكون فيها نفع وهداية.

الشمائل المحمدية \ للإمام الترمذي

السيرة النبوية وتاريخ الخلفاء الراشدين

أ.د. عبدالرحمن سالم، أ.د. عبدالفتاح فتحي

كيف عاملهم — د. محمد صالح المنجد

عن الكاتبة

أسماء عبد الناصر البربري، إنسانة بسيطة تحمل في قلبها حبًّا لله ورسوله صلى الله عليه وسلم، تسعى أن تُبلّغ عن نبيها ولو آية.

كتبت هذا الكتاب حبًّا في نشر الخير، ورغبة في أن يقترب الناس من سيرة خير الخلق صلى الله عليه وسلم، لعلّه يكون سببًا في هداية قلب، أو نورًا يُضاف إلى طريق أحدهم.

ما أنا إلا أمَة ضعيفة، أسأل الله القبول والإخلاص، وأن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم.

آمين.

نبذة عن الكتاب

لكل مسلم...

هذا الكتاب ليس مجرد سيرة، بل رحلة حبّ ومعرفة نحو أكرم الخلق صلى الله عليه وسلم.

صفحاتُه تأخذك من ميلاده إلى لحظة لقائه بربه، لتعيش بين مواقفه، وتتعلم من رحمته، وتستمدّ من نوره طريقك في الحياة.

ليس الغرض أن نقرأه فحسب، بل أن نحيا به... حتى يعرفنا عند الحوض كما عرفناه في الدنيا.

تم بحمد الله وفضله

٢٠ جمادي الأولى ١٤٤٧ هـ

فهرس

إهداء ٥
تنويه ٧
المقدمة ٩
نسبه ١١
مولده ١٣
أعمام رسول الله صلى الله عليه وسلم ١٦
عمّات رسول الله صلى الله عليه وسلم ١٧
أخوال رسول الله صلى الله عليه وسلم ١٧
خالات رسول الله صلى الله عليه وسلم ١٧
أمهات المؤمنين رضي الله عنهن ١٨
أبناؤه ١٩
أحفاد النبي صلى الله عليه وسلم ٢١
صفة النبي صلى الله عليه وسلم ٢٣

محمد صلى الله عليه وسلم منذ وفاة جده إلى زواجه بالسيدة خديجة ٢٧

محمد صلى الله عليه وسلم منذ زواجه بالسيدة خديجة حتى البعثة ٢٩

بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم..... ٣١

(الدعوة في مرحلة الكتمان)..... ٣٣

(الدعوة في مرحلة الجهر) ٣٥

قريش ومقاومة الدعوة..... ٣٦

الهجرة إلى الحبشة ٣٨

إسلام حمزة وعمر بن الخطاب وتأثير ذلك في مسار الدعوة ٤١

اتجاه قريش في مقاومة الدعوة بعد هجرة الحبشة ٤٤

(إنزال الأذى المباشر بالرسول صلى الله عليه وسلم)..... ٤٤

(حصار قريش لبني هاشم وبني المطلب) ٤٥

وفاة أبي طالب وخديجة ٤٧

تطور الدعوة في مكة منذ وفاة أبي طالب وخديجة حتى الهجرة إلى المدينة ٤٨

١- "رحلة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الطائف" ٤٨
٢- "الإسراء والمعراج" ٥٠
٣- "بيعتا العقبة" ٥٢
"الهجرة إلى المدينة" ٥٦
"المناوشات الأولى بين المسلمين ومشركي قريش" ٦٠
"سرية نخلة ومقدمات غزوة بدر" ٦٣
"موقعة بدر" ١٧ رمضان ٢هـ - مارس ٦٢٤ ..... ٦٥
نتائج غزوة بدر ٦٨
غزوة أحد شوال ٣هـ - مارس ٦٢٥م ٦٩
الأحزاب (غزوة الخندق) ذو القعدة ٥هـ - مارس ٦٢٧م. ٧٦
من الخندق إلى صلح الحديبية ٨٢
صلح الحديبية ذو القعدة ٦هـ - مارس ٦٢٨م ٨٤
تطور العلاقة بين المسلمين ويهود المدينة منذ الهجرة حتى صلح الحديبية (١: ٦هـ) ٨٩
من صلح الحديبية حتى عام الوفود (٦-٩هـ) ٩٤
فتح خيبر (صفر ٧هـ) وإخضاع يهود شبه الجزيرة ٩٦

عمرة القضاء: ذو القعدة ٧هـ ٩٨
سرية مؤتة جمادي الأولى ٨هـ..... ٩٩
فتح مكة "رمضان ٨هـ" ١٠٢
غزوة حُنين والطائف شوال - ذو القعدة ٨هـ..... ١٠٨
إسلام ثقيف ١١٤
غزوة تبوك رجب ٩هـ ١١٦
قدوم وفود العرب إلى المدينة معلنة إسلامها منذ العام التاسع الهجري..... ١١٩
حجة الوداع ١٠هـ ١٢٢
وفاة الرسول ١٢ ربيع الأول ١١هـ / يونيو ٦٣٢م..... ١٢٥
نبذة عن أخلاق المصطفى..... ١٣١
المراجع..... ١٣٩
عن الكاتبة..... ١٤٠
نبذة عن الكتاب..... ١٤١